

عبد مومنان

أسرى الغائبين

وَقَصَصَ آخِرَى

ترجمتها: أنطوان مسعود



بيات الحكمة
بيروت

دومومنان - مسعود

أسرى الغائبين

بيت الحكمة

منشورانا القصصية

١	يا بياع السمسمية
٣	حدثني يا ابي
٥	ملح ودموع
٧	صندوق أم محفوظ
٩	عنب تشرين
١١	وكان مازن ينادي
١٣	يوم غضبت صور
١٥	الأنامل السحرية
١٧	جلجامش
١٩	النسر الكرم
٢١	النجمتان
٢٣	جزيرة الوهم
٢٥	النار الخفية
٢٧	جوهرة الجواهر
٢٩	التجارب
٣١	سلسلة من حكايات بيدبا
٣٣	المنجم «عصفور»
٣٥	وطلع الصباح
٣٧	الشريط المخملي
٣٩	الشكوبون
٤١	غرياء
٤٣	وردة الريش الذهب
٢	أبو الخيمة الزرقاء
٤	أسرى الغابة
٦	يوم عاد ابي
٨	جدتي
١٠	عازفة الكمان
١٢	كانت هناك امرأة
١٤	بابا مبروك
١٦	المعنى الكبير
١٨	نور النهار
٢٠	رينين الحناجر
٢٢	اين العروس
٢٤	الغرفة السرية
٢٦	الحاج مجبح
٢٨	دهليز الغرائب
٣٠	الصحائف السود
٣٢	كوب من العصير
٣٤	مغامرات أوليس
٣٦	اسطورة البحر
٣٨	سمايا
٤٠	الحب والربيع
٤٢	خاتم... ليبيك!

الشمس ق.ل

شيء دو مؤپاسان

أسرى الغابة

وقصص أخرى

ترجمها

أنطوان مسعود

بيت الحكمة

بيروت

الغلاف بريشة « زكريا كايا »
الرسوم بريشة « رضوان الشهبان »

أشرى الغابة

أغابة ساكنة باردة ، لا يشوب سكينتها غيرُ
حفيف الثلج الخفيف الذي يكسو الأشجار . بدأ الثلج
يتساقط ، منذ الظهر ، رُفَعاً صغيرة ناعمة تنشر على
الأغصان مسحوقاً جليدياً ، وتلقي على الأوراق الميتة
قُبّة فضيّة ، وتخلع على الطرقات بساطاً وثيراً
مترامياً ، فتُضفي على ذلك الصمت اللامتناهي مهابة
ووقاراً .

أمام باب البيت ، في الغابة ، امرأةٌ صبيّة قد
شمّرت عن زنديها ، تشطُر حطباً بفأس كبيرة . هي
فارعة القامة ، نخيلة العود ، قويّة البنية ؛ إنّها فتاة

جميع الحقوق محفوظة لـ « بيت الحكمة »

من الغابات ، ابنة حطّابين ، وزوج حطّاب .

إنطلق صوت من داخل المنزل يخاطبها :

- « برتين » ، نحن اليوم وحيدتان . وها إن الليل
قد أقبل . هلمّي وادخلي الآن . فلربّما كان بعض
البروسيين أو الذئاب يُجوّم على مقربة من هذا
المكان .

أجابت الحطّابة وهي تشطر جذعاً كبيراً
بضرباتها القويّة :

- لقد فرغت من العمل يا أمّاهُ . ها أنذا ، لا
عليك ، فالنهار لم يولّ بعد .

حملت الحطب المشطور إلى الداخل فكدّسته
قرب الموقد ، ثمّ خرجت فأغلقت الرّتاج المصنوع من
سنديان غليظ ، وأحكمت إيصاد المزاليج الثقيلة .

كانت أمّها تغزّل قرب النار ؛ هي عجوز متجمّعة
أكسبتها السنون حكمة وخشية . فقالت لابنتها :

- إنّ الخوف ينتابني كلّما غاب والدك عن

المنزل . إن امرأتين وحيدتين لمخلوقان ضعيفان .

قالت الصبيّة وهي تشير إلى مسدس كبير كان
معلّقاً فوق الموقد :

- لا تقلقي ، فباستطاعتي قتل ذئب أو بروسِيّ
إذا دعا الأمر إلى ذلك .

كان زوجها قد جُنّد في مستهلّ الغزو البروسيّ ،
فبقيت المرأتان وحيدتين مع الوالد ، « نيكولا بيشون » ،
الحارس القديم الملقّب بـ « الرّهو » ، الذي كان يابى
بعناد شديد مغادرة مسكنه للإقامة في المدينة .

وكانت « ريتيل » أقرب مدينة إلى ذلك المكان ،
وهي موقع قديم حصين جاثم فوق صخرة . كان
سكانها وطنيين متحمّسين ، وقد عقدوا العزم على
مقاومة الغزاة ، وعلى البقاء في منازلهم للصمود في
وجه الحصار وفقاً لتقاليد المدينة ؛ فقد حدث مرّتين
في الماضي ، في عهد « هنري الرابع » و « لويس الرابع
عشر » ، أن اشتهر أهالي « ريتيل » بدفاع بطوليّ ؛

فهم ، في هذه المرة أيضاً ، لن يتخاذلوا ، حتى ولو أحرقتهم العدو داخل جدران منازلهم .

لذلك ابتاع السّكان المدافع والبنادق ، وألّفوا فرقة من الحرس ، وأنشأوا الكتائب والفرق ، وراحوا يتدربون كل يوم على استعمال السلاح . وانخرط في الفرق الحَبَّازون ، والسّمّانون ، والقصّابون ، والكتّاب ، وموظّفو المحاكم ، والنجّارون ، وأصحاب المكتبات ، والصّيادلة ، فكانوا جميعاً يشتركون بالمتاورات مداورةً في ساعات معيّنة ، بإمرة مسيو « لافين » الذي كان قديماً ضابط صفّ في الحيّالة ، والذي أصبح خردجياً منذ أن تزوّج ابنة مسيو « رافوران » البكر وورث دكانه .

تقلد رتبة أمر المَوْقِع ؛ وبما أنّ الشبّان كانوا قد التحقوا جميعاً بصفوف الجيش فقد جند « لافين » الرجال الباقين ، فباشروا التدرّب على المقاومة . كان البُدُن يعبرون الشوارع والطرقات عدوّاً لتذويب شحمهم وللتجلّد وطول الأناة ، وأما

الهنزلى فكانوا يحملون الأثقال لتقوية عضلاتهم .

على تلك الحال بات الجميع يترقبون قدوم البروسيين بفارغ صبر . وطال الانتظار والعدوّ متستّر ، على الرغم من دنوّ قوّاته وتوغّل كشّافه في قلب الغابة مرّتين متتاليتين ، بالغين منزل « نيكولا بيشون » ، الملقّب بـ « الرّهو » .

في كلّ مرّة كان الحارس الهرم يهرع إلى المدينة متسلّلاً كالثعلب ، ناقلاً النّبأ إلى المدافعين المتربّصين ، فتصوّب المدافع استعداداً ، والعدوّ لا يجرّك ساكناً ، وهو بعيد عن الأنظار .

كان مسكن « الرّهو » بمثابة مخفر أمامي في غابة « آفلين » ، وكان الرجل يقصد إلى المدينة مرّتين في الأسبوع لشراء المؤن ، ويحمل إلى السكّان أخبار منطقتة .

في ذلك اليوم ذهب إلى المدينة يُعلمها بأن مفرزة ألمانيّة صغيرة قد مرّت بمنزله ظهرأ منذ يومين ، ثم

انصرفت لتوتوها ؛ وكان ضابط الصف الذي يقودها يتكلم الفرنسية .

كان « الرهو » يصطحب في رحلاته إلى المدينة كلبين كبيرين من كلاب الحراسة ، شدقهما كشدق الأسد ، خوفاً من الذئاب الضارية ، مخلّفاً وراءه زوجته وابنته ، مُوعزاً إليهما بالبقاء في المنزل بعد حلول الظلام .

لم تكن الصبيّة تخاف من شيء ، وأمّا العجوز فكانت متشائمة ما تفتأ تردد بصوت مرتعش :

- ستكون العواقب وخيمة . لن ينتهي الأمر بسلام .

وفي تلك العشيّة كانت أكثر قلقاً من أيّ وقت مضى . قالت لابنتها :

- هل أخبرك والدك بساعة عودته ؟

- لن يعود قبل الحادية عشرة . فهو يعود متأخراً في كلّ مرة يتناول فيها العشاء مع القائد .

همت الصبيّة بأن تضع القدر على النار لتحضير الحساء ، فإذا بها تسمع حساً خافتاً تسرب صداه عبر مدخنة الموقد ، فتوقفت قليلاً وأصغت إليه قائلة :

- أسمع وقع أقدام في الغابة . هنالك سبعة رجال أو ثمانية على الأقلّ .

أوقفت الأم مغزها وقالت متلعثمة :

- يا إلهي ! ماذا نفعل والوالد غائب عن المنزل ؟

لم تكذب تلفظ كلمتها الأخيرة حتى كان الباب يهترّ تحت قرع عنيف .

بقيت المرأتان صامتتين ، ولكن صوتاً أجشّ تعالى من الخارج ، يقول بلُكنة فرنسيّة :

- إفتحوا !

ثم عاد الصوت يقول بعد برهة صمت وجيزة

- إفتحوا وإلاّ حطمتُ الباب !

عندئذ دسّت « برتين » المسدّس الكبير في أحد
جيوبها ، ثم تقدّمت وألصقت أذنها بالباب وسالت :
- من الطارق ؟

- أنا قائد المفزعة التي مرّت من هنا البارحة .
- ماذا تريد ؟

- لقد تهنّا في الغاب . إفتحي وإلا حطّمت
الباب .

لم يكن لها خيار . أزاحت مزلاج الباب ، وفتحت
الدّفّة الثقيلة ، وإذا بها ، في ظلّ الثلوج الشاحبة ،
أمام ستّة رجال ، ستة جنود بروسيّين ؛ فقالت بلهجة
هادئة وهي رابطة الجاش :

- ماذا تريدون في مثل هذه الساعة ؟

- لقد تهنّا ، ولكننا عرفنا المنزل . لم أذق ورجالي
طعاماً منذ الصباح .

قالت « برتين » :

- ولكنني وحيدة في المنزل مع أمّي .

أجاب الجندي ، وكان ، على ما يبدو ، طيّب
القلب :

- لا بأس عليكم . لن يصيبكما أذى . ولكن عليك
أن تحضّري لنا بعض الطعام .

قالت الحطّابة وهي تخطو خطوة الى الوراء :
- أدخلوا .

دخلوا والثلج يغطّي ثيابهم وخوذهم ، وقد
بدا عليهم الوهن والإرهاق .

أشارت الصبيّة إلى المقاعد الخشبية المصفوفة
حول الطاولة وقالت :

- إجلسوا . ساحضركم الحساء . إنّ العياء
بارد على وجوهكم .

وعادت فأغلقت مزلاج الباب .

عكفت على القدر تضع فيها المزيد من الماء
والزّبدة والبطاطا ، ثم تناولت قطعة من الدّهن

معلّقة إلى المدخنة فقطعت نصفها وألقت به في
المَرَق .

كان الرجال الستّة ينظرون إليها وفي أعينهم
بريق جوع متوقّد . كانوا قد وضعوا بنادقهم وخوذهم
في زاوية من الغرفة ، فباتوا ينتظرون هادئين كما
يجلس الأطفال على مقاعد المدرسة .

وعادت الأم إلى مغزها تنظر شزراً إلى الجنود
الغزاة ، وهي ترتعد .

هدمت الأنفاس في القاعة فلم يُسمع فيها غيرُ فحيح
دولاب المغزل ، وزفير النار ، وخرير الماء الذي كان
يغلي فوق الموقد .

إلاّ أنّ الجميع انتفضوا بغتة لسماعهم حسّاً غريباً
يشبه نفثاً أبحّ ، نفثَ بهيمة ، بلغ مسامعهم قادماً
من الشقّ في أسفل الباب .

وبوثبة واحدة كان ضابط الصفّ يهيمّ بالتقاط
إحدى البنادق ، إلاّ أنّ الصبيّة استوقفته بإشارة من

يدها وقالت مبتسمة :

- إنها الذئب . فهي في مثل حالكم ، تُحوّم
جائعة .

ولكنّ الرجل لم يصدّق ، فأراد أن يتشبّت بنفسه ؛
وما إن فتح دفة الباب حتى أبصر حيوانين كبيرين
أغبرين سارعا إلى الهرب خبيباً .

عاد إلى مقعده وهو يتمّم قائلاً :

- لو لم أرَ ذلك لما صدّقت .

وبات ينتظر الطعام .

أكل الجنود بنهَم شديد وأفواههم فاغرة حتى
آذانهم ، وعيونهم مستديرة شأنها شأن فُكوكهم ،
تنطلق من بلاعيمهم جرجرة كأنّها جرجرة المياه
في الميازيب .

وجلست المرأتان صامتتين تنظران إلى تلك اللّحي
الحمراء الكثّة وهي في صعود وهبوط سريعين ؛
وخيلٌ إليهما أنّ البطاطا كانت تغور غوراً في تلك

وأعرب الجنود عن رغبتهم في الشراب ، فنزلت
الخطّابة إلى القبو لإحضار بعض شراب التّفّاح ،
وبقيت هناك مدّة طويلة . كان ذلك المكان جُحراً
صغيراً محدودباً استُخدم في الثورة كسجن وكلجاً
على السّواء . وأمّا الوصول إليه فبواسطة مِرْقاة
ضيّقة لولبيّة يسُدّها منفذ ينفتح في طرف المطبخ .

وحين عادت « برتين » إلى المطبخ كانت تضحك ؛
وضعت بين أيدي الألمان إبريق الشراب ، ثم راحت
تتناول الطعام ووالدتها في الطرف الآخر من المطبخ .

فرّغ الجنود من الطعام ، وبدأ النّعاس يُثقل
أجفانهم وهم ما زالوا ملتفّين حول الطاولة ؛ فمن
وقت لآخر كنت ترى جبهة متثاقلة تهوي فترتطم
بالخشب ، فينتفض الغافل مذعوراً .

قالت « برتين » لضابط الصفّ :

— لماذا لا تستلقون قرب النار ؟ فهناك متّسع

من المكان للجميع . وأمّا أنا فسأصعد إلى غرفتي مع
أمي .

وصعدت المرأتان إلى الدّور الأول ، فأوصدتا
الباب ، وما هي إلاّ ثوانٍ قليلة حتى همّدت
حركاتهما .

تمدّد البروسيّون على البلاط ، وأقدامهم إلى النار ،
يتوسّدون معاطفهم الملفوفة ، وراحوا يغيّطون بعد
حين ، كل بنغمته الخاصّة ، غطيّطاً حادّاً أو رناناً ،
غطيّطاً لاغظاً متواصلاً .

كانوا قد استسلموا للرقاد منذ ساعات حين دوّى
طلق ناريّ قريب وكأنّه خارج من بين جدران
المنزل ؛ فاستفاق الجنود ونهضوا للحال ، ثم دوّت
طلقتان أخريان ، أعقبتهما ثلاثُ طلقاتٍ أخرى .

وانفتح باب الدّور الأوّل ، فخرجت الخطّابة في
ثياب النوم تحمل شمعة في يدها ، وقد بدا الذّعر في
ملاحظتها . قالت متلعثمة :

— لقد أتى الفرنسيّون ، وفي الخارج منهم مئتان

على الأقلّ ! ولسوف يحرقون المنزل من غير تردّد
إذا علموا بوجودكم . إنزلوا إلى القبو ولا تُحدثوا
ضجّة ؛ فإن شعر الجنود بحركتكم ، عليكم وعلينا
السّلام !

وتتم ضابط الصفّ مذعوراً :

- أجل ، أجل ، ولكن من أين نهبط إلى القبو ؟
رفعت الصبيّة بعجلة باب الأرض الضيّق
المربع ، فنزل الجنود القهقري يتحسّسون الدرجات
بيطء وحذر ، ثمّ تواروا عن الأنظار في بطن الأرض .
وما إن غابت آخر خوذة وراء المنفذ حتى
سارعت « برتين » إلى إغلاق العارضة السنديانية الثقيلة ،
وكانت غليظة كالحائط ، صلبة كال فولاذ ، مزوّدة بقفل
من أقفال السجون المتينة وبمفصّلات لا تقبلّ عنها
متانة . ثمّ أحكمت إغلاقه بالمفتاح ، وانتصبت تضحك
نشوى ، وقد أخذتها رغبة جامحة في الرقص فوق
رؤوس أسراها .

ولم تبدر عن الجنود آية حركة وهم ، في عُلبتهم

الحجريّة المتينة ، لا يتلقّون النور والهواء إلا من
طاقة تعترضها قضبان معدنيّة قويّة .

وعادت « برتين » إلى إشعال النار في الموقد ،
وعلّقت من فوقه القدير لتُعدّ المزيد من الحساء ،
وهي تقول :

- لا ريب أنّ الوالد سيكون تعبياً هذه الليلة !

ثمّ رجعت إلى مقعدها وباتت تنتظر . وفي
الغرفة ، في غمرة الصمت ، كان راقص الساعة يُحصى
الثواني ببطء .

وبين الفينة والفينة كانت الصبيّة تلقي إلى
الساعة نظرة ملّلة وكأنّها تقول :

- يا لتلك العقارب ! ما بالها تسير هكذا ، بطيئة
كسلى ؟

مضت برهة تصاعد بعدها من تحت القاعة همّس
خافت ؛ وبدأ الجنود يتعاملون ، وكانت كلماتهم تبلغ
مسمع « برتين » غامضة مبهمّة من خلال قبة القبو

الحجريّة : فلقد أدرك البروسيّونُ خُدعتها ! وبعد
انقضاء دقيقة أو اثنتين صعد ضابط الصفّ مرقة
القبو الضيّقة ، وضرب باب السقف بقبضته وهو
يصيح :

- إفتحوا الباب .

إقتربت الصبيّة وقالت مقلّدة لكنته البروسيّة
الفرنسيّة :

- ماذا تريد ؟

- إفتحي !

- لن أفتح !

- إفتحي وإلاّ حطّمت الباب !

فهتت وقالت :

- حطّمه يا صديقي ، حطّمه !

وشرع يضرب الباب بعقب بندقيّته ، ولكنّ
قذيفة مدفع ما كانت لتخرق سندان ذلك الباب المتين .

ثم قام الجنود كلّ بدوره يجددون المحاولة أو يعالجون
القفل ، ولكنّ محاولاتهم باءت بالإخفاق ، فعادوا إلى
أماكنهم يتداولون فيما بينهم .

أصغت الصبيّة برهة إلى حديثهم ، ثمّ نهضت من
مكانها وفتحت باب المدخل ، وأصاحت في سكون
الليل .

سمعت نباح كلب كان يقترب من المنزل باستمرار ،
فصفّرت كما يصفّر الصيادون ؛ وللحال انبثق من الظلمة
كلبان هائلان وثبا نحوها وثبة فرحة ، فأمسكت
بعنقيهما لتهدئهما ؛ ثمّ راحت تنادي بأعلى صوتها :
- يا أبي !

أجابها من بعيد صوتٌ كالصدى !

- يا « برتين » !

وكرّرت النداء ، ثم قالت موجّهة كلامها إلى
أبيها :

- لا تمرّ من أمام واجهة البيت ، فهناك ، في

القبو ، جنود بروسيون .

ثم لاح لناظر الصبيّة طيفُ أبيها الذي وقف
متستراً بجذع شجرة ، فسأل بلهجة يشوبها القلق :

- بروسيون في القبو ؟ وماذا تراهم يفعلون

هناك ؟

ضحكت « برتين » وأجابت :

- هم أولئك الذين أتوا الليلة البارحة ، عادوا
إلينا بعدما تاهوا في الغابة . وهم الآن في القبو لا
حوّل لهم ولا قوّة بعد ما اقتدتهم إليه خدعة .

وقصّت عليه الحيلة من أولها ، وكيف أنّها
أوقعت بهم بعد ما أطلقت من مسدّسها بعض
العيارات الناريّة !

قال العجوز وهو واجم :

... ماذا تريدني أفعل بهم في هذه الساعة ؟

- لماذا لا تذهب لاستدعاء مسيو « لافين » وجنده ؟

فهو سيلقي القبض عليهم بكلّ سرور .

إبتسم الأب « بيشون » وقال :

- أجل ، سيكون مسروراً جداً !

وأضافت الابنة قائلة :

- لقد أعددت لك بعض الحساء . تناول طعامك

بسرعة قبل أن تنصرف .

جلس العجوز إلى المائدة وراح يأكل بعد ما ملأ
صحنين وضعهما على الأرض أمام كلبيه .

وفي تلك الأثناء كان البروسيون قد توقّفوا عن
الكلام بعد ما سمعوا أصواتاً فوق رؤوسهم .

فرغ « الرّهو » من طعامه فعاد لتوّه نحو المدينة ،
وعادت « برتين » تنتظر ورأسها إلى كفيها .

وعاد الأسرى إلى التمللم واللغظ ؛ فكانوا
يصرخون وينادون ، ويضربون باب السنديان
بينادقهم . بيد أنّ الباب بقي ثابتاً لا يتزعزع . ثمّ

راحوا يطلقون النار من خلال الطاقة عليهم
يسترعون انتباه الألمان الذين يُحتمل وجودهم في
الجوار .

ولم تاتِ الخطابة حركة . ولكن تلك الضجة
الصاخبة كانت تثير أعصابها ، واتقد في صدرها
سخطٌ حاقد ، فتمنّت لو أنّها تقضي على أولئك
الأشقياء واحداً واحداً لإخماد أنفاسهم !

عيل صبرها وزاد اضطرابها ، وعيناها عالقتان
بساعة الحائط تعدّان الدقائق والثواني .

كان الوالد قد انصرف منذ ساعة ونصف الساعة.
فهو إذاً قد وصل إلى المدينة حتماً . وخيّل إليها أنّها
تتبع تنقلاته : فها هو ينقل الخبر لـ « لافين » الذي
شحب لونه لشدة تأثره ، والذي استدعى خادمته
لكي تحضّر له بزّته وأسلحته ؛ وتخيّلت ضارب
الطبل يجوب الطرقات مُطبّلاً ، والرؤوس تمتدّ من
النوافذ مذعورة ، والجنود يخرجون من بيوتهم
مهرولين ، يشدون أحزمتهم منطلقين كالسهام شطراً

منزل قائدهم ؛ ثم تراءت لها الفرقة وعلى رأسها « الرهو » ،
تتقدّم في غمرة الثلوج ، وتشقّ ستار الليل باتّجاه
الغابة .

وحدّجت الساعة مرّة أخرى ، وقالت تخاطب
نفسها : « قد يصلون في غضون ساعة » .

يا له من انتظار لا نهاية له ! فالدقائق تبدو
وكأنّها ساعات . للقلق المضي !

وانتهت المدة التي حدّدها « برتين » كمهلة قصوى
لوصول النجدة .

وعادت إلى الباب ففتحتّه ، فرأت للحال طيف
رجل يسير باحتراس كثير ؛ فارتاعت ، وانطلقت
من حنجرتها صيحة قصيرة . كان هذا القادم والدها .
فقال لها :

- لقد تقدّمت الرّكب لأرى ما إذا كان الوضع
على حاله .

- كلّ شيء على ما يرام .

أطلق « الرّهو » صَفْرَة طويلة حادّة حمل الليل
صداها إلى أقاصي الغابة .

وعلى الأثر راحت أطياف قائمة تتسلّل بين
الأشجار بتانٍ وحيطة : إنّها المقدّمة المؤلّفة من
عشرة رجال . وكان « الرّهو » يردّد من غير
انقطاع :

- حذارِ المرور من أمام طاقة القبو !

وأخيراً وصلت الفرقة بكامل عدّتها ، وقوامها
مئتا رجل يحمل كلٌّ منهم مئتي رصاصة .

وأما مسيو « لافين » ، الذي كان يرتعش تأثراً ،
فقد وزّع رجاله حول المنزل يطوّقونه ، تاركاً
مساحة واسعة خاوية أمام طاقة القبو الذي سُجن
فيه البروسيّون .

ثم دخل إلى المنزل يستقي المعلومات عن العدو ،
وعن مدى قوّته ، وطريقة تصرفه ؛ وكان البروسيّون
إذ ذاك قد اعتصموا بهدوء تامّ ، وكانّ الأرض قد

ابتلعتهم ، أو كأنّهم قد طاروا من خلال قضبان
نافذتهم الصغيرة .

ضرب مسيو « لافين » باب الأرض بقدميه وصاح :

- سيّدي الضابط البروسيّ !

فبقي نداؤه من غير جواب !

- سيّدي الضابط البروسيّ !

لا حياة لمن تنادي ! واستمرّ « لافين » مدّة
عشرين دقيقة يدعو الضابط الساكن إلى الاستسلام
بأسلحته وعتّاده ، وهو يعدّه بالإبقاء على حياته
وحياة جنوده ، والحفاظ على كرامتهم العسكريّة ؛
ولكنّه لم يتلقَ أيّ جواب ، نفياً أو إيجاباً ، فغدا
الوضع حرجاً للغاية .

كان الفرنسيّون يضربون الثلج بأرجلهم ، وهم
ينظرون إلى الطاقة ، وفي نفوسهم رغبة ساذجة في
المرور من أمامها . وأخيراً قام أحدهم بتلك المغامرة
غير مبالٍ بما يتعرّض له من خطر ، وكان ممرّناً

سريع الخطى ، فاندفع وثباً إلى الأمام ومرّ قبالة
الطاقة خفيفاً كالغزال ، فنجحت تجربته وبدا وكان
الأسرى قد فارقوا الحياة .

وقال أحد الفرنسيين :

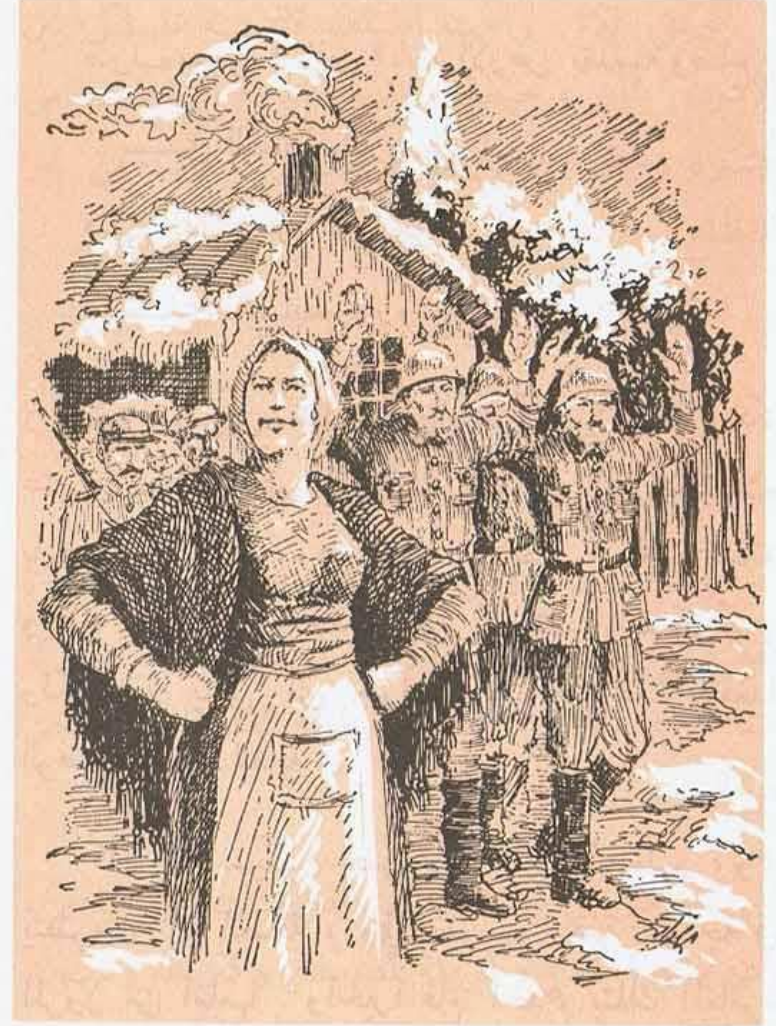
- ليس هنالك أحد .

واجتاز حنديّ آخر الساحة الخاوية أمام الثقب
الخطير . وبعد ذلك بات الأمر هو أطفال : ففي كلّ
دقيقة كنت ترى رجلاً ينطلق بخفّة ، يتعرّج في
عدّوه ، مخلّفاً وراءه غباراً ثلج ناعم . وكانت النار
التي أشعلها القادمون للاستدفاء تعكس طيفاً كلّ
فرد من أفراد الحرس الوطنيّ في رحلته القصيرة من
شقّة اليمين إلى شقّة اليسار .

وصاح أحدهم :

- لقد جاء دورك يا « مالوازون » .

كان « مالوازون » خبّازاً بديناً ، وكان بطنه الرّحّب
يثير ضحك رفاقه .



بقي « مالوازون » متردداً ، والباقون يسخرون منه .
عندئذٍ استجمع قواه وتحرك ببطء ، ثم اندفع بخطى
رياضية منتظمة ، وتنفسه المتسارع يجرجج كرشه
المنفوخة .

وضحك الجميع حتى سال الدمع من العيون ؛
وكانوا يصيحون به تشجيعاً :

– أحسنت يا « مالوازون » ! أحسنت !

إجتاز الحبّاز البدين ثلثي المسافة وبات قريباً من
هدفه ، بيد أن بريقاً أحمر خاطفاً انبعث فجأة من
الطاقة أعقبه دويٌّ صاعق ؛ فخرّ الحبّاز على وجهه
يصيح من شدة ألمه .

لم يتقدّم أحد من المصاب لنجدته ، فراح الحبّاز
يزحف على يديه وركبتيه ؛ وما إن ابتعد قليلاً عن
الممرّ الخيف حتى أغمي عليه . لقد أصابته الرصاصة
في أعلى فخذه .

ثم زال تأثير الخوف والمفاجأة فعادت القهوة

تتفجّر من حناجر المهاجمين .

في تلك اللحظة خرج « لافين » ووقف أمام عتبة
المنزل ، وكان قد وضع مخططاً للهجوم . فأمر
بصوت مدوّ :

– السّمكريّ « بلانشوت » وعمّاله .

فتقدّم منه ثلاثة رجال .

– فكّوا ميازيب المنزل بسرعة

وعاد العمّال الثلاثة بعد ربع ساعة يحملون إلى
« لافين » عشرين متراً من أنابيب الميازيب .

وأمر « لافين » بثقب حفرة ضيقة في باب القبو
الأرضي ، ثم وصل مضخة الماء بالحفرة بواسطة
الأنابيب ، وقال وهو راضٍ بادي السرور :

– والآن سنقدّم للسادة الألمان قليلاً من الشراب !

أطلق الجنود صيحة إعجاب شديدة ، مشيعين
بضحكهم المفرط وغبطتهم الغامرة جلبة وفوضى .
وقسم القائد الفرنسيّ جنوده مجموعاتٍ صغيرة

تتناوب العمل في فترات منتظمة ، ثم قال بلهجة
أمرية :

- ضخّوا الماء !

وتحرّكت يد المضخّة الحديدية ، فانساب في داخل
الأنابيب خريرٌ ضعيف ما لبث أن بلغ القبو متحوّلاً
هناك إلى همس يشبه همس الشلّالات .

وكان انتظار طويل . إنقضت ساعة ، ثم انقضت
ساعتان ، فثلاث ساعات .

كان « لافين » يذرع القاعة محموماً ، يستطلع
أخبار العدو ، متحرّياً سلوكه ، متحرّياً لاستسلامه
الوشيك !

ولوحظ فجأة أنّ العدو قد بدأ يضطرب . كان
البروسيون يحرّكون البراميل ويتخاطبون ، والمياه
التي غمرتهم تهبج وتموج .

وعند الساعة الثامنة صباحاً انطلق من الطاقة
صوت يقول :

- أريد أن أكلم الضابط الفرنسي .

وأجاب « لافين » من خلال النافذة محاذراً :

- هل تريد الاستسلام ؟

- إنني أستسلم .

- إذا ألقوا بأسلحتكم خارجاً .

وبرزت من خلال القضبان الحديدية بندقيّة
أولى سقطت فوق الثلج ، ولحقت بها بندقيّة ثانية ،
فثالثة ، وهكذا حتى آخر قطعة من سلاح الجنود
الأسرى . وقال البروسي :

- لم يبقَ لدينا الآن أيّ سلاح . أسرع ، فقد
أشرفنا على الغرق .

ونظر « لافين » إلى رجاله وقال :

- أوقفوا الضخّ .

فهوت يد المضخّة وتوقّف انسياب الماء .

ملا « لافين » المطبخ بالجنود ، فوقفوا

مستعدّين لإطلاق النار ؛ ثمّ تقدّم ورفع بيضاء بابَ
السنديان الصغير ، فبرزت رؤوس أربعة مبلّلة ،
أربعة رؤوس شقراء ، بشعرها الشاحب الطويل ؛
ثم خرج الجنود الألمان الستّة الواحد تلو الآخر ،
وأسنانهم تصطكّ برداً ، والمياه تتصبّب منهم ، والذعر
بادٍ في عيونهم .

ألقي القبض عليهم وأُحْكَم وثاقهم . وبعدئذ
انقسم الرجال قافلتين ساقّت إحداها الأسرى ،
وحملت الثانية « مالوازون » الجريح فوق حمالة
خشبيّة . فكان دخولهم إلى « ريتيل » دخولَ
المنتصرين .

قلّد « لافين » وساماً رفيعاً تقديراً لنجاحه
بأسره جنوداً من الأعداء . وأمّا الحنّاز البدين فقد
حاز المدايعة العسكريّة لإصابته بالجروح وهو يقاتل
العدوّ !

الحاريس

بعد العشاء ، جلس المدعوّون يسردون قصص
الصيد بما فيها من حوادث ومغامرات مثيرة .
وشخصت الأبصار إلى « بونفاس » ، أحد المدعوّين ،
وهو صيّد ماهر ، صلب العود ، مرح الطّبّاع ،
سريع البديهة ، ذو دعاية بريئة محبّبة .
تنحّج « بونفاس » وقال وهو يستقيم في جلسته :
- أعرف قصة صيد ، أو بالحري كارثة صيد ،
بالغة الغرابة . وهي لا تشبه البتّة أيّة قصة أخرى
من قصص الصيد . وإني لم أقصّها على أحد قبل اليوم ،
لاعتقادي بأنّها قد لا تسلي أحداً . فطابعها لا يملك

على المُستَمِيع حواسّه ولا يأخذ بمَجَامِع قلبه ،
ووقعها في النفس لا حلاوة فيه إطلاقاً .

كنت آنذاك في الخامسة والثلاثين من عمري ،
ومن عشاق الصيد الواهين . وكانت لي في جوار
« جومييج » أرضٌ منعزلة ، تحيط بها أحراج تكثر
فيها الأرانب البريَّة . ولم أكن أذهب إلى ذلك المكان
إلا أربعة أيّام أو خمسة في العام ، أذهب وحيداً ،
إذ لم يكن في المسكن متَّسع لإقامة أكثر من
شخص واحد .

وقد أقيمت آنذاك على المكان حارساً ، هو جنديٌّ
متقاعد شجاع ، حادّ الطبع ، شديد المحافظة على
الأنظمة والقوانين ، عدوّ لدود لمن يتعاطى الصيد
الحرام . وكان يسكن بمفرده منزلاً صغيراً بعيداً عن
القرية ، في دوره الأرضيَّ غرفتان ، الأولى سقيفة ،
والثانية مطبخ ، وفي دوره الأوّل غرفتان للنوم
واحدة منها خاصّة بي ، لا تتسع لأكثر من سرير
وخزانة وكرسيّ واحد .

وكان الأب « كافالييه » يحتلّ الغرفة الأخرى . ولا
أظنني صدقتك القول حين قلت إنّه كان وحيداً
في مسكنه ؛ فقد كان في الواقع يقيم فيه مع ابن
أخيه ، وهو فتى طالح ، في الرابعة عشرة من عمره ،
كان يقصد إلى القرية التي تقع على بعد ثلاثة
كيلو مترات لشراء المُون ، ويُعين العجوز في
أعماله اليوميَّة .

كان ذلك الفتى الشقيّ هزيباً فارغ القوام يميل
إلى الانعقاد ، ذا شعر أصفر قليل يشبه عُرف
دجاجة منتوفة ، حتى ليبدو وكأنه حليق الرأس .
وأما يدها وقدماه فكانت ضخمة هائلة كقوائم فيل .

كان حوِّلاً ، لا ينظر إلى أحد أبداً . وكنت
أشعر أنّه في الناس بمثابة البهائم النّتينة في الحيوانات ،
فهو أشبه بشعلب أو بابن عرس .

كان ينام في جُحر صغير في أعلى السُّلّم الذي
يرتقي إلى غرفتي النوم . إلا أنّ « ماريوس »

كان ، خلال إقامتي القصيرة في « الجناح » - وقد
أسميت ذلك المسكن الحقيق جناحاً ! - يعير كوثه امرأة
عجوزاً اسمها « سيليست » كانت تأتي لتحضر لي
طعاماً يغنيني عن طعام الأب « كافالييه » الشحيح .

أما الآن ، وقد تعرفتم إلى شخصيات الراوية
ومسرحها ، فهاكم قصتي :

وافق ذلك اليوم ١٥ تشرين الأول ١٨٥٤ ، ولن
أنسى التاريخ ما حييت .

غادرت « ريوان » على صهوة جوادي ، يتبعني كلي
« بوك » ، وهو عريض الصدر واسع الشدق ، وقد
تقلدت بندقيتي ، وعلى ردف مطيّي جراب سفري .
كان الطقس بارداً ، والرياح تصفير كئيبة ، والسماء
موشحة بغيوم قائمة .

وأثناء عبوري عقبة « كانتولو » جلّت بطرني في
وادي « السين » العريض الذي يقطعه النهر حتى الأفق
متعرجاً كالأفعى ؛ فإلى اليسار تشمخ « ريوان » نحو

الفضاء بقُببها ، وإلى اليمين تحدّ الرؤية أراضٍ
مترامية تغطّيها الأحراج . اجتزت غابة « رومار » ،
تارة على مهل ، وتارة خبياً ، وبلغت « الجناح »
قبيل الساعة الخامسة ، فإذا بالأب « كافالييه »
وب « سيليست » ينتظران وصولي .

فلعشر سنوات خلت بقيت أقصد ذلك المكان
 بالطريقة نفسها ، وكان الاثنان يستقبلاني بترحاب
مماثل :

- أسعد الله يومك ياسيدي . كيف صحّتك ؟
لم يتبدّل في « كافالييه » شيء إطلاقاً ؛ فهو صامد
في وجه الأيام كشجرة هرمة صلبة . بيد أن « سيليست »
قد تغيّرت تماماً ، وبخاصة خلال السنوات الأربع
الآخيرة . غدت منقصة الجسم ، تمشي وظهرها
منعطف إلى الأمام حتى ليكاد يرسم مع ساقها زاوية
مستقيمة .

كان التأثر يرتسم على وجه تلك المرأة العجوز



المخلصة كلما عادت إلى مشاهدتي، وكانت تقول لي
كلما غادرت المكان :

- من يدري ياسيدي العزيز ، فقد تكون هذه
آخر مرّة .

كان وداع تلك الخادمة المسكينة بما فيه من كدر
ووجع ، وذلك الخضوع المذعن في حضرة الموت
المُحدق ، يُحدثان في نفسي وقعاً غريباً في كل عام .

ترجّلت عن الجواد ، واقتاد « كافالييه » مطيّي إلى
الإسطبل الصغير بعد ما صافحته بجرارة ، ثم دخلت ،
و« سيليست » في أعقابي ، إلى المطبخ الذي كان في الوقت
نفسه غرفة للطعام .

ولحق بنا الحارس بعد برهة . ونظرت إليه فخيّل
لي أنّ هاجساً كان يشغله : فالقلق بادٍ على محيّا ،
وهو منحرف المزاج . قلت له :

- قل لي يا « كافالييه » ، هل كلّ شيء على ما
يرام ؟

فاجاب متمتماً :

- نعم ولا . فهناك أمور لست راضياً عنها البتة .

سالت :

- وما الذي يوغر صدرك يا عزيزي ؟ أطلعني على

سرك .

فهزّ رأسه وقال :

- لا ، ليس الآن . لا اريد أن أضايقك ساعة

وصولك بما يُقضّ عليّ مضجعي .

وألححت في معرفة الأمر ، ولكنه امتنع عن

الحديث قبل موعد العشاء . ومع ذلك فقد أيقنت

للحال أنّ القضية بالغة الأهمية ، فبقيت صامتة لا

أدري ماذا أقول ؛ ثم سألته بعد ما أعيّنتي الحيلة :

- هل الصيد جيّد هذه السنة ؟

- آه ، أجل ، إنّ الصيد كثير كثير . فلسوف

تروي منه غليلك . لقد سهرت على حماية الطرائد ،

والحمد لله .

قال هذا برصانةٍ بلغت حدّاً مضحكاً ، وإذا

بشاريه الأشهبين وكأنّها سيهويان من فوق شفتيه .

وفجأة تنبّهت إلى إنّي لم أرَ نسيبه منذ

وصولي ، فقلت :

- أين « ماريوس » ؟ لم أره بعد .

فانتفض الحارس وقد فاجأه السؤال ، فحدّق

إلى وجهي وقال :

- سيّدي ، أظنّ أنّ الوقت قد حان لكي

أخبرك بالأمر من غير تأخير . فالذي أكابده له

بـ « ماريوس » علاقةٌ وثيقة .

- أين هو ؟ تكلم .

- إنّهُ في الإسطبل يا سيّدي ، وكنت أرقب

حضوره بين لحظةٍ وأخرى .

- وماذا به ياترى ؟

- إليك القصة يا سيّدي ...

تردد الحارس ، وارتسم الغم على أحاديده وجهه
الهرم . ثم استطرد بصوت متزن :

- خلال الشتاء المنصرم تبين لي أن أحدهم كان
ينصب الفخاخ في غابة « روزري » ، ولكنني لم
أتمكن من القبض على الفاعل . وقضيت في ذلك المكان
ليلةً بعد ليلة ، ولكن من غير جدوى . وفي تلك
الأيام راحت اليد الأثيمة تتعاطى الصيد المحرم في
ناحية « إيكورشفيل » ، فاصابني الهزال لشدة ما
عانيت من الكدر . وكان القبض على الغادر يبدو
مُحالاً ، فكانني به كان عالماً بتنقلاتي ، واقفاً على
مخططاتي .

« وحدث ذات مرة ، بينما كنت أنظف سراويل
« ماريوس » ، أن وجدت في أحد جيوبه أربعين فلساً ،
فتساءلت : من أين له مثل ذلك المال ؟ وبتُّ أفكر
بالأمر أياماً طويلة ، وفي تلك الأثناء لاحظت أن
« ماريوس » كان يغادر المنزل في الوقت الذي أعود فيه
إليه للراحة . أجل ياسيدي ...

« وبقيت أراقبه من غير أن تخامرني ريبه .
وفي ذات صباح خرج « ماريوس » من المنزل خلسةً ،
فرحت أتتبعه وهو يظن أنني نائم في المنزل . وأنت
تعلم يا سيدي أنني في اقتفاء الأثر فريد لا صنو لي .
وما هي إلا لحظات حتى أمسكت به ، هو
« ماريوس » ، ينصب الفخاخ في أراضيك أنت يا
سيدي ، هو ، نسيبي أنا ، حارسك .

« أصبت بصدمة تفوق حدّ الوصف ، وكدت أن
أقتله لقرط ما كُلت له من الضرب المبرح ، وقد
أوعده بعقاب مماثل أمامك للعبارة .

« هذا كل ما في الأمر . لقد هزلني الغم
والكدر . ولا إخالك كنت تفعل غير ما فعلت لو أنك
مُنيت بخيبة كهذه . فهذا الصبي يتيم الوالدين ، وليس له
من قريبٍ سواي . لذلك أبقيته رغم فعلته الشنعاء ،
ولم أكن قادراً على طرده ، إلا أنني أنذرتَه بطرده
إن هو عاد إلى مثل هذا العمل ، فلا شفقة إذ ذاك
ولا رحمة . أفلا تظن يا سيدي أنني كنت محقاً في
ما فعلت ؟ »

أجبتُه وأنا أمدُّ إليه يدي :

- لقد أحسنتُ صنْعاً يا « كفالِيهه ». إنَّكَ لرجل طيِّب .

فقال وهو يبرح مكانه :

- شكراً جزيلاً يا سيِّدي . أمّا الآن فساذهب سعيّاً وراءه لينال العقاب الذي يستحقّ .

كنت أعلم أن لا مجال لردّه عن عزمه ، فتركته يتصرّف كما يشاء .

عاد بالصبيّ ممسكاً به من أذنه ، وكنت جالساً على كرسيّ من القشّ ووجهي جامد القسّامات كوجه قاضٍ في محكمة . وخيّل لي أنّ « ماريوس » قد كبر ، وأنّ قبّحه قد زاد عن ذي قبل بشراسته البيّنة ووجهه المُرّائي ، وأمّا يدها فكانتا تبدوان هائلتين أبداً ودوماً .

دفعه عمّه أمامي وأمره بلهجته العسكريّة :

- أطلب الصّفح من السيّد .

فبقي الصبيّ صامتاً .

عندئذٍ أمسك به الجنديّ القديم من تحت إبطيه وانهاه عليه ضرباً قاسياً ، حتى إنني نهضت من مكاني لأضع لذلك العنف حدّاً .

وفي تلك اللحظة راح الصبيّ يصيح من كثرة الألم :

- أُرّحمة ! الرحمة ! الرحمة ! إنني أتعهّد ...

خلّى « كفالِيهه » سبيله ، ثمّ ضغط على كتفيه وأرغمه على الرّكوع أمامي ، وقال :

- أطلب الصّفح .

فقال الصبيّ وهو يحدّق إلى الأرض :

- إنني أطلب الصّفح .

فرفعه عمّه وصرفه بصفعة كادت تفقده توازنه ؛ ففرّ الصبيّ ولم يعد إلى الظهور في تلك الليلة .

كان الذهول بادياً على « كفالِيهه » ، فقال بلهجة يائسة :

- إن هذا الصبيّ نجس شرير .

ولم ينفك يردّد أمامي طوال فترة العشاء :

- هذا الأمر يكاد يقتلني ! لو تعلم مدى شقائي !

وحاولت أن أخفّف عنه ، ولكنّ العجوز بقي

على حاله ، صامتاً ، مقطبّ الجبين .

طلبت الراحة باكراً في تلك الليلة ، وفي نيّتي أن

أنهض للصيد في فجر اليوم التالي . وعندما عمّدت

إلى الشمعة التي تنير غرفتي فاطفأتها ، كان كلي قد

تمدّد على الحضيض أمام السرير .

عند منتصف الليل أفقت على « بوك » الذي كان

ينبّح نباحاً شديداً ، فوجدت الغرفة ممتلئة دخاناً .

أضأت الشمعة وأسرعت نحو الباب أفتحه ، فاجتاحت

الغرفة عاصفةٌ من لهب .

لقد شبّبت النار في المنزل تلتهم جوانبه كافة .

سارعت إلى إغلاق الباب المصنوع من السنديان

الغليظ ، وارتديت ثيابي بسرعة ، ثمّ دلّيت كلي من
النافذة بواسطة حبل صنّعته من أغطيّة السرير ،
ولحقت به بعدما أنزلت ما لديّ من ثياب وسلاح
ومتاع . ورحت أصرخ بأعلى صوتي :

- كفالبيه !.. كفالبيه !.. كفالبيه !..

ولكنّ الحارس كان ينام نوماً عميقاً ، نوم الجنديّ

القديم التّعب .

ومن خلال نافذة الطابق الأرضيّ ألقيت نظرة

إلى الداخل فإذا بالمنزل أتّون متاجّج . ولاحظت أنّ

أحدهم كان قد كدّس في المكان قشّاً يابساً لإضرام

النار ، فأدركت للحال أنّ يداً قد أشعلت النار عمداً ،

وأنّ الأمر لم يكن مجرد حادث طارئ .

وعدت أصرخ بأعلى صوتي :

- « كفالبيه » !

وظننت برهة أنّ الدخان خنق أنفاسه ، فصوّبت

بنديّتي إلى النافذة وأطلقت في قلبها عياراً واحداً ،

فتناثر الزجاج في داخل الغرفة فتاتاً . عندئذٍ
أفاق العجوز ، وأطلّ بثياب النوم هليعاً يبهرُ
بصره ذلك النورُ الوهاج الذي أضاء واجهة مسكنه
السُّفلى .

ناديته وأنا أصرخ عالياً :

- أسرع ، إنَّ البيت يحترق . أهبُطُ من
النافذة . أسرع ! ..

بدأت ألسنة اللهب تتدفق من الثغرات في
الطابق الأرضي ، متسلّلة على طول الجدران في
ارتقاء سريع راح يضيّق الخناق على الحارس المسكين .
إلاّ أن العجوز أسرع في القفز خفيفاً كالمهرّ فنجأ
بذلك من موت محتوم ، إذ إنّ سقف القشّ
انهار دفعة واحدة بعد خروجه . وتصاعدت في
الجوّ باقة حمراء محرقة نثرت حول المسكن رذاذاً
من شرر . وما هي إلاّ ثوان قليلة حتى اشتعل
المسكن بكامله .

وسأل « كافالييه » وقد أصابه الذهول :

- كيف شبت النار ؟

فأجبت :

- لقد أشعل أحدهم النار في المطبخ .

- من تراه قام بمثل هذا العمل ؟

- قلت وقد تنبّهت فجأة للأمر .

- « ماريوس » .

وأدرك العجوز حقيقة الأمر . فقال متلعثماً :

- يا إلهي ، أنا أعرف الآن لماذا لم يعد إلى المنزل
مساء كالمعتاد !

ولكنّ فكرة رهيبة قطعت عليّ حبال تأملي .
فصحت مدعوراً :

- و « سيليست » ، أين « سيليست » ؟

لم يَنيِس الحارس بكلمة . وفجأة انهار المسكن
أمامنا ، فبات كأنه موقد غليظ دامٍ ؛ وأيقنت
آنذاك أن المسكينة قد استحوّلت جمره حمراء ، جمره

من لحم بشري .

وأيقنت أن النار المنتشرة سوف تبلغ الحظيرة ،
ففكرت بحصاني الذي كان في داخلها ، فهرع « كافالييه »
لإنقاذه .

وما إن فتح « كافالييه » باب الإسطبل حتى
تعشّر بجسد ليّن سريع تسلّل من بين ساقيه فألقاه
أرضاً . إنّه « ماريوس » الذي أطلق ساقيه للريح .
ونفض الحارس يحاول اللحاق بالشقيّ للقبض عليه ،
ولكنّه سرعان ما علم أنّه عاجز عن ذلك ؛ إذ ذاك
اجتاحته غضبة غامرة ، وبجركة لا واعية التقط
بندقيّتي التي كانت أمامه على الأرض ، فأسندها إلى
كتفه ، وأطلق النار قبل أن أتمكّن من ردّعه .

كانت إحدى القذيفتين قد بقيت في البندقيّة
بعدما أطلقت النار على النافذة ؛ فاصابت الفارّ في
وسط ظهره ، فسقط على الأرض يعقرّ التراب بوجهه ،
ويتخبّط في دمه . ثم استقام برهة على يديه وركبتيه

كأنه يريد العَدُوّ على أربع ، على طريقة الأرنب البريّة
الجريح التي ترى الصياد مقبلاً نحوها .

وانطلقتُ إليه مهرولاً ، فإذا به في نزاعه الأخير ؛
ولم تكد أنفاس الحريق تهمد حتى كان هو الآخر
جثة هامدة .

ووقف « كافالييه » بقميص نومه ، عاري القدمين ،
جامد الأوصال ، فاغراً فاه .

وصل القرويون إلى مكان الكارثة ، فحملوا
الحارس وهو شبه مجنون .

مثلت بين يدي المحكمة للإدلاء بشهادتي ، فسردت
وقائع الحادث بكاملها . وأخلي سبيل « كافالييه » ، ولكن
الحارس غادر المنطقة في اليوم نفسه إلى غير عودة .
ولم أره منذ ذلك الحين .

انتقام أم

١

كانت آخر زيارتي لـ « فيرلون » خمسَ عشرة سنة خلت . وبعد تلك المدة الطويلة عدت إليها في الخريف لأصطاد عند صديقي « سرفال » بعدما رُمّم قصره الذي دمّره البروسيون .

كنت أحبّ تلك المنطقة حبّاً جمّاً ؛ فهي من تلك البقاع النادرة التي تملأ العين سحراً جذاباً . والإنسان مفطور على حبّ الأرض التي يعيش فيها ، يشدّه إليها إغرائه صارخ ، ويحتفظ بذكريات عذبة لبعض ينايعها ، وأحراجها ، ومستنقعاتها ، وتلاها ،

تلك التي مرّ بها غير مرّة ، والتي خلّفت في قلبه
سعادة وحنيناً . وفي بعض الآونة ترجع الذكرى
بالإنسان إلى ماضٍ سحيق ، إلى زاوية من غابة ، أو
منعطفٍ من ضفّة نهر ، أو إلى بستان أخضر
عابقٍ بالزهر في يوم ضاحك ، فتبقى هذه الرؤى
منطبعة في مخيلته .

في « فيرلون » كنت أحبّ الريف كما هو ، بأحراجه
الصغيرة ، وجداوله المتعرّجة التي تنساب مترققة
كأنها الشرايينُ تحمل للأرض دمها المُحيي . كان
الصيد متوافراً فيها ، والأماكن الصالحة للسباحة
منشورة هنا وهناك ؛ وفي ثنايا الأعشاب التي نبتت على
ضفاف تلك المجاري الضيقة كانت الطيور كثيرة
متعدّدة .

سرت خفيفاً كالماعز ، أنظر إلى كليّ يسعيان
أمامي في أثر الطريدة . وكان « سرفال » على بعد مئة
متر إلى يميني ، يجدّ هو الآخر في سبيله ؛ درت
حول الدّغل الذي يؤلّف حاشية حرج « ساندر » ،

وإذا بي أمام كوخ متهدم .

تذكّرت له للحال ، كما شاهدته لأول مرّة عام
١٨٦٩ ، تكسوه العرائش ، وأمام عتبه دجاجاتٌ
تنقُد الحبّ . ما من مشهد قطّ فيه من الكآبة ما
في مشهد بيت مَيّت ، بهيكله الذي بقي قائماً ، وهو
متداعٍ مشؤوم .

وتذكّرت أيضاً امرأة طيّبة قدّمت لي ذات يوم
في داخل الكوخ كأس نبيذ منعش لذيذ ؛ وكان
« سرفال » قد حدّثني يومذاك عن ساكنيه : فالأب
الذي كان يتعاطى الصيد المحرّم قد قتله رجال الدرك ؛
وكان الابن شاباً طويل القامة ، صُلب العود ، يتمتّع
هو الآخر بشهرة عريضة في إبادة الطرائد . وقد أطلق
الناس على العائلة اسم « سوفاج » ، ويعني المتوحّشين .

ناديت « سرفال » فلحق بي بخطاه العريضة .
سالته :

- ماذا حلّ بأصحاب هذا الكوخ ؟
فقصّ عليّ الحكاية التالية .

تعاقت الأيام وحلّ شتاء آخر قاسٍ ، والأمُّ
« سوفاج » تعيش حياتها المعهودة في كوخها الذي كسّته
الثلوج . وكانت تذهب إلى القرية مرّة كلّ أسبوع
لشراء الخبز واللحم ، ثمّ تعود مباشرةً إلى منزلها
الحقير . كانت تحمل معها قبل مغادرتها الكوخ بندقية
ابنها العتيقة الصّديئة ، لعلمها أنّ الذئاب كانت تحوّم
في المنطقة ، فيغدو منظر الأمّ « سوفاج » غريباً في تلك
اللحظات ، وهي ماثلة بقامتها الفارعة ، وعلى رأسها
قبعتها الضيّقة السوداء تلملم شعرها الأبيض الذي لم
يقع عليه بصر إنسان ، غير أهل بيتها .

وذات يوم حطّ البروسيّون رحلهم في المنطقة ،
ففرض على الأهلين إيواؤهم بالنسبة لموارد كلّ منهم
وثروته ، فكان نصيب الأمّ « سوفاج » أربعة شبّان
ذوي بشرات بيضاء ، ولحى شقراء ، وعيون زرقاء ،
بقيت في ملاحظهم أمارات الصّحة والعافية مع ما
كابدوه من تعب ، أربعة شبّان بقيت قلوبهم تطفح
طبيّةً حتى في الأرض المحتلّة تلك ؛ فراحوا يتودّدون

يوم نشبت الحرب ، تطوّع الابن « سوفاج »
للقتال ، وكان إذ ذاك في الثالثة والثلاثين من عمره ،
مخلفاً في المنزل أمّاً وحيدة قلقة . ولم يكثرث
الناس لمصيرها لعلمهم أنّها كانت تدّخر من المال ما
يؤمّن لها كفاف العيش .

بقيت الأمّ وحيدة في ذلك البيت المنعزل ، النائي
عن القرية ، على حاشية الغابة . إلّا أنّ عزلتها لم تكن
لتُخيفها وهي من طينة الرجال : عجوز قاسية ،
طويلة ، نحيلة القدّ ، لا تضحك إلّا نادراً ، ولا تتيح
لأحد مجالاً للمزاحتها . إنّها لمِثال الفلاحة المجتهدة ؛
وإن خرج شريك حياتها ينشدّ التسلية في مقهى القرية
بقيت وحيدة في المنزل ووجهها واجم مقطب . فهي لم
تألف الضحك أو التسلية إطلاقاً .



إلى الأمّ المُسنّة ، يكفونها مؤونة التعب والنفقات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . في الصباح كانوا يغتسلون حول البئر ، مشمّرين عن زنودهم ، يداعب الماء جلودهم النضرة البيضاء ، فينعمون بالتسلية رداً من الوقت ، فيما تنصرف الأمّ « سوفاج » لتحضير الحساء . ثم كانوا ينظّفون المطبخ ، ويمسحون الأرض ، ويقطعون الحطب ، ويقشرون البطاطا ، ويغسلون الثياب ، إلى ما هنالك من أعمال منزليّة يُنجزونها كاربعة أبناء صالحين يُحيطون بأمهم الحنون .

بيد أنّ العجوز كانت تفكّر بابنها بلا انقطاع ، تفكّر بقامته المشوقة ، بأنفه المعقوف ، بعينه السمرأوين ، بشاربيه الكَثَّين يعلوان شفته راسمين فوقها وسادةً من وبر أسود . وكانت كلّ يوم تطرح على جنودها الأربعة السؤال نفسه :

– أتعلمون أين ذهب فوج المُشاة الفرنسيّ الثالث والعشرون ؟ إنّ ولدي جنديّ فيه .

فيجيب الجنود بلُكنتهم الفرنسيّة :

- كلاً ، لا نعلم ، لا نعرف شيئاً .

كانوا يحترمون كاتبها وقلقها ، وهم الذين
خلفوا في بيوتهم البعيدة أمهات مثلها ، فيُعنون بها
عناية فائقة . وكانت هي الأخرى تحب أعداءها
الأربعة ، لأنّ الفلاح لا يُفسح في قلبه مجالاً
للأحقاد ، فهذا الأمر وَقَفَ على الطبقات العليا
دون سواها . وأما العامة الذين يدفعون أهبّ الأثمان
لأنّهم هم الفقراء ، وهم الذين ترهق كاهلهم القروضُ
كافةً ، والذين يكابدون من الحرب أشنع ويلاتها لأنّهم
أضعف الناس وأقلهم مقاومة ، هؤلاء لا يفقهون
لغليان الحروب معنى ، ولا للخطط السياسيّة التي
ترهق في ستّة أشهر أمتين كاملتين ، المنتصرة
والمنهزمة على السواء .

كان الجميع يتحدثون عن جنود الأمّ «سوفاج»
الألمان ، فيقولون :

- أولئك الأربعة قد وجدوا ماوأم المنشود .

وذات صباح ، بينما كانت الأمّ وحيدة في المنزل ،

أبصرت من بعيد رجلاً يتّجه نحو منزلها : إنّه ساعي
البريد . سلّمها ورقة مطوية ، فوضعت نظارتها ،
ثم قرأت ما يلي : « إلى السيّدّة «سوفاج» : إنّ
هذه الرسالة تحمل إليك نبأ مفاجئاً ؛ لقد قُتل
ولذلك «فكتور» البارحة إذ أصابته قذيفة شطرت
جسده شطرين . وقد كنت إلى جانبه أصغي إليه وهو
يحدثني عنك ، ووعدته بأن أكتب إليك من غير
تأخير إذا ما لحق به أيّ أذى . ولقد أخذت ساعته من
جيبه كي أعيدها لك بعد نهاية الحرب . وإليك
منّي التعزية » .

أالجنديّ «سيزير ريفو» من فوج المشاة الثالث والعشرين .

وكان قد مضى على تاريخ الرسالة ثلاثة
أسابيع .

لم تدرِ الأمّ «سوفاج» دمة واحدة ، بل
وقفت جامدة ، مذهولة ، مقبوضة الصدر ، حتى إنّها
لم تشعر بالألم في بادئ الأمر . وقالت في قرارتها : «ها
إنّ «فكتور» قد قُتل هو أيضاً » . ثم اغرورقت

عينها بالدمع شيئاً بعد شيء ، واجتاحت اللوعة قلبها دفعة واحدة ، وراحت الهواجس تعبر مخيلتها واحدة واحدة ، مروعة ، معذبة . لن تقبل ولدها بعد اليوم ، لن تقبل وحيدها أبداً . لقد قتل رجال الدرك الأب ، وقتل البروسيون الابن ... لقد شطرته القذيفة شطرين ! وخيل لها أنها تعيش ذلك الحادث المروع : الرأس وهو يميل بلا حياة ، والعينان الجاحظتان ، والشفتان تلوكان طرف الشارب المتدلي كما كانتا تفعلان في ساعات الغضب .

وماذا حلّ بالجثة يا ترى ؟ آه ! لو أنهم على الأقلّ يعيدون إليها وحيدها ، كما أعادوا زوجها من قبل وقد اخترقت جبينه رصاصة قاتلة .

وسمعت الأمّ لغط البروسيين الذين كانوا عائدين من القرية ؛ إستقبلتهم بهدوء بعدما تمالكت نفسها ، وبعدها دسّت الرسالة في جيبها ، ومسحت عن عينيها آثار الدموع .

كان الأربعة يقهقهون عالياً وقد غمرتهم النشوة ،

وهم يحملون أرنباً قد سرقوها ولا ريب ، وراحوا يشيرون إلى العجوز بأنّ طعامهم سيكون لذيذاً .

عكفت الأمّ « سوفاج » من غير توانٍ على تحضير الطعام . إلاّ أنّها توقفت مذعورة حين همّت بذبح الأرنب ، مع أنّ تلك الأرنب لم تكن أوّل أرنب تذبحها ! وأتى أحد الجنود فسدد إلى الحيوان المسكين ضربة من قبضته أطاحت حياته .

وسلخت الأمّ الحيوان الصغير ، ولكنّ رؤية الدم الذي كان يغطّي يديها ، ذلك الدم الدافئ الذي راح يبرد ويتخثر ، بعثت الرعشة فيها من رأسها إلى أخمص قدميها ؛ فقد تخيلت ولدها ، بجسده المشطور ، يتخبط في دمه كذاك الحيوان الذي ما زال دافئاً بين يديها .

وجلست مع بروسيتها إلى المائدة ، إلاّ أنّها لم تذوق لقمة واحدة . وأمّا هم فقد التهموا الأرنب من غير أن يكثرثوا لها . وراحت تنظر إليهم شزراً ،

وفي رأسها فكرةٌ تختمر ، وملاحمها جامدة كالصخر ،
فلم يخامر الجنودَ الأربعة أيّ ارتياب .

وسالت الأمّ « سوفاج » فجأة :

- أنا لا أعرف أسماءكم قط ، وقد مضى على
وجودنا معاً شهر كامل .

وفهم الجنود رغبتها بعد لآي ، فادلى كلّ منهم
باسمه . ولكنها لم تكتفِ بهذا القدر ، فاستكتبتهم
أسماءهم على ورقة ، مع عناوين عائلاتهم . وبعدما
ألقت على تلك الخطوط الغريبة نظرةً خاطفة من
خلال نظّارتها ، دسّت الورقة في جيبها فوق الكتاب
الذي نعى إليها ولدها .

قالت للجنود بعد تناولهم الطعام :

- سأنصرف الآن لأرتّب بعض أموركم .

وراحت تكدّس التبن في العليّة التي ينامون فيها .

دهش الجنود لهذه البادرة ، ولكنها طمأنتهم إلى

أنّ التبن سيُدفيء أجسادهم ، فدّوا إليها يد العون .
وتعالّت أكداس التبن حتى بلغت سقف العليّة
المصنوع من القشّ اليابس ، فإذا بعليّتهم غرفةً كبيرة
ذات جدران من العلف أربعة ، دافئة عطيرة ،
يجلو فيها النوم !

وخلال العشاء قلق أحد الجنود لدى رؤيته الأمّ
« سوفاج » وقد رغبت عن الطعام كما في الوجبة
السابقة ، مدّعية أنّها تعاني آلاماً في معدتها . ثمّ أوقدت
الأمّ ناراً للتدفئة ، وتسلق الألمان الأربعة السلّم إلى
مضجهم ليناموا .

وما إن أغلقوا الباب حتى نحت العجوز السلّم ،
ثمّ فتحت الباب الخارجي وراحت تنقل حزمًا من
القشّ ملأت بها مطبخها . كانت تغدو فوق الثلج حافية
القدمين ، بجذر كثير ، فلم تُحدث خطأها حسّاً ولو
خافتاً . ومن وقت لآخر كانت تصغي إلى غطيظ
الجنود الأربعة النائمين .

وبعدما أيقنت أنّ الاستعداد بات كافياً ، تناولت

حزمة قشّ وأضرت فيها النار ، ونثرتها على الحزم الأخرى ، ثمّ خرجت وراحت تنظر محدّقة .

وفي بضع ثوانٍ اجتاح الكوخ من الداخل نورٌ وهّاج ، ما لبث أن غدا جمره متوقّدة ، وفرناً كبيراً متأججاً انبعث نوره من النافذة الضيقة فبسط على الثلج أشعة برّاقة .

وانطلقت من المنزل صيحةً عالية ، تحوّلت بعد آنٍ إلى لغط من عويل بشريّ ، وتعلت استغاثات خنق نبراتِها الألمُ المبرّح والروع الشديد . ثمّ اجتاحت العليّة زوبعةً ناريةً ثقت سقف القشّ ، وتصاعدت نحو السماء كلسان مشعل كبير ، وإذا بالكوخ كلّهُ أتونٌ كهلب .

وخدت الأنفاس من الداخل ، فلم يُسمع بعدُ غيرُ زفير الحريق ، واصطكاك الجدران ، وتساقط الأعمدة الخشبيّة . وانهار السقف انهياراً تاماً ، وبقي الهيكل المتلظّي ينفث في الهواء سحابةً شررطويلة، وسط غمامة كثيفة من الدخان .

وانعكست أشعة النار على بساط الثلج الأبيض فراحت الأرض تلمع وكأنّها الفضة قد طُلّيت ذهباً .

ودق جرس كنيسة في البعيد .

بقيت الأمّ « سوفاج » منتصبه أمام مسكنها المهديم ، وفي يدها بندقيّتها مخافة أن ينجو من الحريق واحدٌ من الجنود الأربعة .

وبعدما تأكّدت أن كل شيء قد انتهى ، ألقّت ببندقيّتها في النار ، فاشتعلت ذخيرتها وتفجّرت .

أقبل الناس على موضع الحريق ، فوجدوا المرأة جالسة إلى جذع شجرة ، آمنة راضية .

- سألها ضابط بروسي بلهجة فرنسيّة طليقة :

- أين جنودك ؟

فدّت يدها الضعيفة مشيرة إلى رُكام الحريق الأحمر الذي بدأ يخمد ، وأجابت بصوت ثابت :

- هناك ، في الداخل .

وتجمع الناس من حولها ؛ وسألها البروسي :

- وكيف اندلعت النار ؟

فاجابت بهدوء :

- أنا أشعلتها .

لم يصدّقها أحد . وظنّ الحاضرون أنّ الكارثة قد أفقدتها صوابها . وأمّا هي فقد راحت تقصّ عليهم تفاصيل الحادثة ، من أوّلها إلى آخرها ، منذ أن تلقت الرسالة حتى آخر صيحة انطلقت من الرجال الذين هلّكوا في الحريق . ولم تهمل تفصيلاً واحداً ممّا فعلته أو أحسّت به .

فرغت الأمّ المنتقمة من كلامها وتناولت من جيبها ورقتين مطويتين ، فتفحصتها على أشعة النار المتلاشية بعدما ركّزت نظارتها ، ثمّ قالت وهي تشير إلى إحداها :

- هذه هي الورقة التي حملت إليّ نبالاً مقتل

« فكتور » ...

ثمّ تناولت الثانية فقالت وهي توميء برأسها مشيرة إلى الانقراض الحمراء :

- وهذه الورقة تحمل أسماءهم ، فانتقلوا الخبر إلى ذويهم .

وبهدوء تامّ وضعت الورقة بين يدي الضابط الذي أمسك بكتفها ، ثمّ أردفت :

- أرجو أن تصف الحادث كما وقع ، وأن تقول لوالديهم إنّني أنا صاحبتّه ، أنا « فكتور سيمون سوفاج » . لا تنسَ !..

وأصدر الضابط بعض الأوامر بالألمانية ، فسيقت الأمّ إلى أحد جدران المنزل الذي كان ما يزال حارّاً كالجر . واصطفّ اثنا عشر رجلاً قبالتها ، على بعد عشرين متراً ، فلم تحرك ساكناً . لقد فهمت ، ووقفت تنتظر .

وانطلق من الضابط أمر سريع ، أعقبته طلقات

قوية . ثم دوّت رصاصة متأخرة . لم تسقط العجوز ،
بل هوّت وكانّ ساقها قد حُصدت من تحتها .

تقدّم الضابط البروسيّ منها . كانت جثتها
مشطورة شطرين تقريباً ، وقد شدّت رسالتها في يدها
المتشنّجة المضرجة بدمائها .

★

وأضاف « سرفال » يقول :

- لقد دمرّ الألمان قصري على أثر ذلك ، عبرة
وعقاباً .

أما أنا فرحت أفكر بأمّات أولئك الشبان
الطيبين الأربعة الذين احترقوا داخل الكوخ ، وبعمل
الأمّ الأخرى التي أهدمت إلى ذلك الجدار .

إلتقطت حجراً صغيراً بقيت عليه آثار من النار
سوداء ، ورحت أنظر إليه متأملاً .

الذئب

كان المدعوون جميعاً قد اصطادوا وعلاً خلال
النهار ، ما عدا المركز العجوز « دارفيل » الذي لم
يشارك بالمطاردة ، والذي لم يكن يتعاطى القنص
إطلاقاً .

وخلال مآذبة العشاء الكبيرة ، دار الحديث على
مجازر الحيوانات دون أيّ موضوع آخر . وكانت
النساء أنفسهنّ يُولين اهتمامهنّ تلك الحكايات الدمويّة ،
وكان المتكلّمون يمثّلون بالإيماء صولات الرجال وقتالهم
ضدّ الطرائد ، يجرّكون أيديهم ، ونبرات أصواتهم
ترتفع رنانة .

كان المركيز « دارفيل » خطيباً مبدعاً ، تُداخل
كلامه شاعريةً مزخرفةً ساحرةً في آن معاً. فهو ولا
ريب قد سرد قصصه تكراراً ، ولذلك تراه يجيد
في كلِّ مرّةٍ سرداً ، فلا يتردد ، ولا يتعثّر بالكلام
الذي ينتقيه بإتقان لوصف المشاهد الحيّة ، وعقب
انتهاء العشاء قصّ علينا المركيز السّالفة التالية :

- أيها السادة ، أنا لم اصطد مرّةً واحدةً في
حياتي ، كما إنّ أبي وجدّي وجدّ جدّي لم يمارسوا
الصيد هم الآخرون . وكان جدّ جدّي ابناً لرجل
اصطاد من الحيوانات البريّة أضعاف ما تصطادون
أنتم مجتمعين . وساروي لكم كيف مات .

كان يدعى « جان » ، وكان أباً لذاك الابن الذي
كان جدّ جدّي ، وكان يسكن مع أخيه الأصغر
« فرانسوا دارفيل » قصر العائلة في « اللورين » ، في
قلب الغابة .

ولم يتزوَّج « فرانسوا دارفيل » ، بقي عزّاً لأنّ

الصيد كان يملك عليه حبّه ولبّه .

كان الأخوان « دارفيل » يصطادان معاً من أوّل
السنة إلى آخرها ، من غير راحة أو توقّف أو وهن .
لم يحبّ شيئاً غير ذلك ، ولم يُلَمّا بأي أمر آخر ،
فكانا لا يتحدّثان إلّا عن الصيد ، ولا يعيشان
إلّا به .

كان يلهب جواسهها ذلك الهوى العنيف المتصلّب
الذي تاجّج في أعماقها ، فاجتاح كلاً منها واحتلّ في
قرارته المكانة المطلقة الفريدة .

وقد أمر الشقيقان في ذلك الزمان ألاّ يضايقهما
أحد عند خروجهما إلى الصيد ، مهما كانت الأسباب .
وقد أبصر جدّ جدّي النور فيما كان والده يجده في
أثر ثعلب ؛ وقد رُوي أنّ « جان دارفيل » لم يتوقّف
حينئذ عن المطاردة ، بل صاح حانقاً : « ألم يكن
بإستطاعة هذا اللعين أن يولد بعد رجوعنا من
الصيد ؟ »

وكان شقيقه «فرنسوا» أكثر منه اندفاعاً وحماسة في الصيد؛ فمِنذ طلوع الفجر كان يخرج لتفقد الكلاب والخيول، ومن ثمّ كان يدور حول القصر فيصطاد العصافير ريثما يحين موعد الانطلاق لاصطياد الطرائد الكبيرة.

وقد أطلق عليهم سكّان المنطقة اسم «السيّد المركيز» و«السيّد الأصغر»، إذ إنّ ألقاب النُبل في ذلك الوقت لم تكن لتلحق بأفراد العائلة أجمعين، ولم تكن بالتالي وراثيّة شأن الألقاب التي يتوارثها البنون عن الآباء في أيّامنا هذه.

ويبدو أنّها كانا فارعيّ القامة، نحيليّ العود، أشعرين، عنيقيّ الطباع، قوييّ البنية. وأمّا الأصغر، الذي كان أفرع قامته من أخيه، فكان يتميّز بصوت جهواريّ، رنان؛ وينال إنّّه كان فخوراً بصوته الذي كان يجعل أوراق الأشجار ترتعد لدى انطلاقه من حنجرتّه!

وعندما كان الشقيقان يركبان جواديهما للذهاب إلى الصيد، كان مشهدهما رائعاً للغاية، إذ يبدوان كالعَملاقين في استقامتهما على مطيئتهما الأصليتين.

واتّفق أن اجتاحت المنطقة، في أواسط الشتاء من سنة ١٧٦٤، موجة من البرد لم يُعرف لها مثيل؛ فغدت الذئاب ضارية، تهاجم الفلّاحين المتأخّرين، وتحوم ليلاً حول المنازل، تعوي من حلول الليل حتى طلوع الفجر، وتعيث في الإسطبلات فساداً.

وبعد مدّة سرت شائعة على ألسنة الأهلين؛ راحوا يتحدّثون عن ذئب عملاق، ذي وبر أغبر مائل إلى بياض، كان قد افترس طفلين، والتهم ذراع امرأة، وخنق كلاب الحراسة في المنطقة كلّها. كان يدخل إلى الحظائر بجرأة فائقة، ويحول حول المنازل يستشم على عتباتها. وقد اعترف الأهلون جميعاً بأنهم قد أحسّوا بلهائه القويّ يبلغ أحياناً ضوء المصاييح فيكاد يطفئها. ولم يمض على تلك الشائعة زمان وجيز حتى اجتاحت المقاطعة رعبٌ قاتل. لم

يبقى أحد يجرؤ على مغادرة منزله بعد حلول الظلام ،
فكأن صورة ذلك الوحش كانت تهيمن على الدياجير
كشبح من أشباح العقاريت .

واعترم الأخوان « دارفيل » العثور على ذلك
الذئب الجبار والقضاء عليه . وفي هذا السبيل دَعَوْا
إلى الرحلات التي نظّمها نبلاء المنطقة أجمعين .

بيد أن المساعي ذهبت أدراج الرياح . لم تُترك
بقعة من الغابات ، ولا زاوية من الأدغال ، إلا
جرى التفتيش فيها بدقة وإمعان ، ولكن الصيادين
لم يجدوا للوحش أثراً . لقد قتلوا في رحلاتهم ذئاباً
عديدة ، ولكن الذئب الوحش لم يكن في عدادها .
ففي كل ليلة ، بعد عودة الصيادين إلى منازلهم ، كان
الوحش يهاجم القطعان ، بعيداً عن المكان الذي يجري
فيه البحث عنه ، وكأنه يروم في ذلك انتقاماً من
الصيادين الذين كانوا يفتكون ببني جنسه .

وذات ليلة هاجم الذئب حظيرة الخنازير في قصر
« دارفيل » ، وافترس أسمن خنزيرين فيها .

وشبّت نار الغضب في قلب الشقيقتين ، وقد اعتبرا
أنّ ما حدث إنّما كان إهانة لهما ، وشتيمة مباشرة ،
وتحدّياً سافراً يتعمّده الوحش عابثاً ؛ فأعدّاً كامل
العُدّة ، واختاراً من بين الكلاب أكثرها مقدرة على
مطاردة الوحوش الضارية ، وانطلقا إلى الصيد وفي
القلب منهما نار سُخْط متأجّجة .

ومنذ الفجر إلى ساعة آذنت الشمس بالمغيب جاب
الشقيقتان الغابات والأدغال من غير أن يقعا على أثر
للووحش ؛ فعادا أخيراً حانقَيْن يائسين ، وقد أخذتِهما
فجأة مخافة مبهمة من ذلك الذئب الذي كان يحبط
حيلتهما وكأنه عالم بنيّاتهما في كل حين .

- ليس هذا الحيوان كالأخر . فكأنني به يفكر كما
يفكر الآدميون .

وأجاب الأخ الأصغر :

- يجدر بنا أن نطلب من ابن عمنا المطران أن
يبارك رصاص بنادقنا ، أو أن نقيم الصلاة ؛

فلربما كان هذا الأمر ذا جدوى .

ثم عاد كلّ منهما إلى صمته .

وأردف « جان » بعد برهة :

- أنظرُ إلى الشمس في احمرارها العجيب . فالويل

لمن يلتقي الذئب الكبير هذه الليلة .

ولم يكذ يفرغ من كلامه حتى شبّ جواده

مرتاعاً ؛ وراح جواد « فرانسوا » يثب ويضرب

الأرض بقائتيه . فقد انفرجت أمامهما كتلةٌ من

شجيرات غضة تكتنفها الأوراق الميتة ، وإذا بحيوان

ضخم ينطلق من ثناياها ، ويعدو في قلب الغابة بسرعة

فائقة .

صاح الاثنان معاً صيحة فرح مدويّة ، وأطلق

كلّ منهما عنان جواده وهو يُحشّه بالصياح والحركة

والمهراز ؛ فانطلق الجوادان بهما كالريح .

واستمرّ في مطاردتهما يعبران الغابة ، ويهيّطان

الورهاد ، ويتسنّمان التلال ، ويجتازان الفِجَاج ،

وهما ينفخان في البوق لدعوة الأتباع والكلاب .

وفي غمرة هذا السِّباق الهائم الخطير اصطدم رأس

جدّي بغصن شجرة كبير متدلّ ، فانشقت جمجمته ،

وسقط على الأرض ميتاً ، فيما استمرّ الجواد في عدّوه

يجتاح الظلال التي أخذت توشح أشجار الغاب .

وتوقّف الأخ « دارفيل » الأصغر وأسرع إلى مكان

الحادث ، فأخذ أخاه بين يديه ، فوجد أنّ رأسه كان

ينزف دماً غزيراً . عندئذٍ جلس بالقرب من الجثة

وأسند رأسها إلى رُكبته ، وراح يُنعم النظر في

وجه شقيقه الأكبر الذي جمّدت قسّماته . وفي

غضون ثوانٍ قليلة بدأ الخوف يتسرّب إليه ،

خوفٌ غريب لم يكن قد شعر به من قبل ، خوف

من الظلال ، خوف من الوّحدة ، خوف من الغابة

القاحلة ، وأكثر من ذلك كلّهُ ، خوفٌ من ذلك

الذئب الأسطوريّ الذي قتل أخاه .

وازدادت الظلمةُ حلوّكاً ، وأخذت أوصال الأشجار

تصطك تحت وطاة البرد ؛ فهض «فرانسوا» من مكانه ، وهو يشعر بأنه سيتلاشى . وكانت الأبواق قد همدت ، وغاب عن مسمعه نباح الكلاب في الأفق البعيد . كان ذلك الصمت الرهيب ، في تلك العشيّة الجليديّة ، يهزه بتيّار من الذعر والرهبّة .

أخذ بين يديه القويّتين جثة «جان» الكبيرة ، ووضعها على السرج لحملها إلى القصر . وبعد ذلك سار بخطى وثيدة ، وأفكاره مضطربة كما لو كان تملاً ، تغزو مخيلته صور رهيبة لا عهد له بها .

ولكن ، فجأة ، برز من خلال الظلمة التي كانت تغطّي الممرّ في الغابة طيفٌ كبير . إنه الوحش عينه ! فسرت في أعضاء الصياد رعدة خوف طويلة ، وتصبّب من بدنه عرق بارد ؛ فرسم إشارة الصليب كأنه يريد طرد روح شريرة ، وقد أذهلته عودة السفاح بتلك الصورة المفاجئة . بيد أن عينيه وقعتا على الجسد الهامد المسجّى أمامه ، فتحولّ ذعره إلى سخط عنيف ، وحلّت في جسده قشعريرة الحقد .

عندئذٍ نَحَزَ جواده بمهازيه وانطلق كالشهاب وراء الذئب . وراح يطارده بين الأشجار الملتفة ، عابراً مجاري السيول ، مجتازاً أحراباً بعيدة ، وعينه مسمرة إلى تلك البقعة البيضاء السريعة التي كانت تعدو أمامه هاربة في الليل الحالك .

وكأني بالجواد كان يبيض في تلك اللحظة بقوة وحزم جديدين ، فراح يعدو بسرعة ، وهو يصطدم بالأشجار وبالصخور ، ورأس القتيل ورجلاه متدلّية من ناحيتي السرج . كانت الأشواك تنتزع من الجثة شعراً دامياً ، وكان الرأس في ارتطامه يلوّث الأشجار بدمه ، وكان المهازان ينتزعان من الجذوع خرقاً كبيرة .

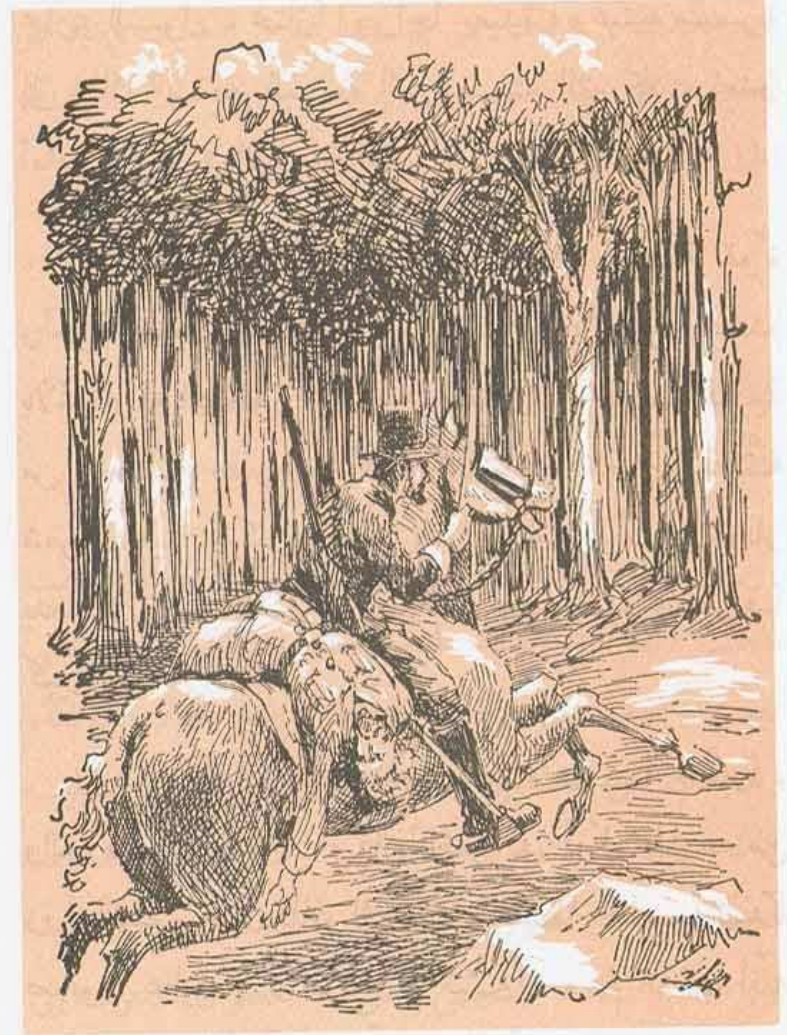
وخرج الذئب من الغابة وولج وهدأ صغيراً ، والفاربر في أعقابه . وكان القمر في أول طلوعه من وراء القمم . كان ذلك الوهد ممراً ضيقاً حجرياً تسده صخور عالية ، لا مخرج له البتّة . وعلم الذئب أنه قد وقع في الفخّ ، فتوقف واستدار .

أطلق « فرانسوا » عندئذ صيحة فرح مرعدة
رددت الصخور صداها ، ووثب إلى الأرض وفي يده
سيفٌ صيد قصيرٌ عريض .

وقف الذئب ينتظره مقوس الظهر ، وعيناه
برأقتان كنجمتين . وقبل أن يخوض الصياد القوي
قتاله ، حمل جثة أخيه وأسندها إلى صخرة ، وجعل
الرأس ، الذي غدا بقعة واسعة من دم ، فوق بعض
الحجارة ، وصاح في أذنه كما لو كان أصم :

- أنظريا « جان » ! أنظر إلى هذا !

ثم انقضَّ على الوحش . كان يحسَّ بمقدرة على
زحزحة الجبال وعلى طحن الصخور بقبضتيه . وأراد
الذئب أن ينهشه ، وحاول أن يبقر بطنه بأنيابه ،
ولكن الصياد أمسك بخناقسه ، فراح يخنقه ببطء ،
بعدما ترك سلاحه ، وهو يُصغي إلى أنفاس الوحش
تتلاشى ، ودقات قلبه تهمد ، شيئاً بعد شيء .
وكان يضحك مقهقهاً ، في نشوة لا توصف ، وضغطه
يزداد أكثر فأكثر ، وهو يردد في هذيان غبطته :



« أنظر يا جان ! أنظر ! »

وكفّ الذئب عن المقاومة ، وتراخت أعضاؤه .

لقد مات !

نهض « فرانسوا » ، فحمل الذئب الميت بكلتا يديه
وطرحه عند قدمي شقيقه البكر وهو يقول بصوت
غصت نبراته بالحبّ والحنان : « خذ يا أخي ، هل
تراه ؟ ! » ثمّ وضع الجثتين على السّرج ، الواحدة فوق
الأخرى ، وعاد أدراجه نحو القصر .

دخل القصر وهو يضحك ويبكي ، تارة يطلق
صيحات النصر والبهجة في حديثه عن مقتل الوحش ،
وطوراً ينتفح لحيته ويئنّ في وصفه مقتل أخيه .

وفيا بعد ، حين كان يأتي على ذكر ذلك اليوم
المشؤوم ، كان يقول والدمع يترقرق في عينيه :

- آه ! لو أنّ أخي « جان » استطاع أن ينظر
إليّ وأنا أخنق الوحش بيديّ ، لكان قد فارق
الحياة آمناً مطمئناً .

وآما أرملة جدي فقد بثّت في نفس ابنها اليتيم
بغض الصيد ، فتناقله الآباء والبنون إلى أن وصل
إليّ .

★

وتوقّف المركيز « دارفيل » صامتاً . وسأله
أحدهم :

- هذه القصة أسطورة ، أليست كذلك ؟

وأجاب القصّاص :

- إني أقسم لك بأنها حقيقية من أولها إلى آخرها .

مغامرة «فالتر شنافز»

منذ أن دخل «فالتر شنافز» إلى «فرنسا» في الجيش ، كان يحسب نفسه أشقى المخلوقات إطلاقاً ، فهو بدين ، يتحرك بعناء ، يلهث بكثرة ، ويعاني على الدوام آلاماً مبرحة في قدميه المسطحتين الغليظتين . وهو ، فضلاً عن ذلك ، مُسلم عطوف ، لا هو بالهمام ولا بالدموي ، له من البنين أربعة يحبّهم حبّ العباداة ، متزوج بامرأة حسنة لا ينفك يفكر بها في كلّ لحظة . كان يحبّ التّضحّي والنوم باكراً في المساء ، وتذوّق المأكّل الشهية ، وتناول الجعة في الخّمّارات . وهو يعلم كذلك أنّ كلّ ذي

النَّمَط لشهور عديدة خَلَّتْ ، في غَمْرَةِ الْجَزَعِ
والقلق .

كان فيلقه يتقدّم باتجاه « نورمانديا » ، وذات
يوم أرسل « فالتر شنافز » في مهمّة استطلاع في مفرزة
صغيرة . كان الريف هادئاً ، وليس ثمة من دليل ينبئ
بمقاومة وشيكة . وفيما كان البروسيون ينحدرون
بأمان عبر وادي ضيق تتخلّله شعاب سحيقة ، فاجأتهم
طلقات حامية كَبَحَتْ جِهاحهم وجندلت ما يقارب
العشرين منهم . ثمّ انقضّ عليهم فريق من المناوشين
خرجوا فجأة من غابة صغيرة وحرّابهم في رؤوس
بنادقهم .

بقي « فالتر شنافز » هامداً باديء الأمر ، وطغى
الولّه عليه فأفقدته كلّ عزم على الهرب . ثمّ تملّكته
رغبة جامحة في العدو والفرار ، ولكنّه كان يعلم أنّه
كالسَّلْحَفَاة إذا ما قُورن بأولئك الفرنسيين الخفاف
الذين يثبون كالماعز . وما لبث أن أبصر على قيد
خطوات منه حفرة عريضة يكتنفها نبات معرّش ،

عدوبة في الوجود يزول مع الحياة الفانية . وعلى
هذا الأساس كان يَكُنُّ حقداً غريزياً ، متعلّلاً ،
للمدافع والبنادق والمسدّسات والسيوف ، وللحراب
بخاصّة ، تلك الأسنّة السريعة التي كان يعجز عن
استخدامها للدفاع عن كَرَشِه المنفوخة .

عند المساء ، حين كان يفترش الأرض ملتفّاً بمِعْطفه
إلى جانب رفقائه الغاطّين ، كان يفكّر طويلاً
بعائلته وبالمهالك التي تعترض سبيله : « ماذا يحل
بالصغار إذا قُتلت ؟ ترى ، من يسهر على إعالتهم
وتربيتهم ؟ » لم تكن لهم أيّة ثروة ثابتة ، مع أنّه
حاول قبل رحيله أن يؤمّن لهم مورداً للعيش .
وكثيراً ما كان يجد نفسه في ظروف كهذه يذرف
دمعاً سخياً .

في مستهلّ القتال كان دائماً يشعر بالضعف يعتري
ساقيه ، حتى إنّ كان يفكّر بالانبطاح أرضاً متخلّفاً
عن الجنود الباقين ؛ وكان بدنه يقشعر في كلّ مرّة
يسمع فيها أزيز الرصاص . وها إنّ يعيش على هذا

وتغطّيها أوراق الشجر الجافّة، فاندفع صوبها
وألقى بنفسه فيها غير مُبالٍ بعمقها، كما يقفز أحدهم
إلى نهر من فوق جسر .

وفي مرحلة هبوطه القصيرة مرّ كالسهم عبر كتلة
نباتيّة كثّة من الجذور والعلّيق الحادّ، فتخدش وجهه
ويداه، ثمّ استقرّ على فراش صلب من الحجارة .

رفع عينيه إلى فوق فبصّر بالسماء من خلال
الثغرة التي ابتلعتة . وإذا كان الثقب جديراً بإفشاء
سرّه، راح يجبو إلى أعماق جحره مستترّاً بالأغصان
المتشابكة، مبتعداً ما استطاع عن موضع القتال . ثمّ
توقّف ثانية، وعاد إلى الجلوس، وقد أقام بين
الأعشاب العالية كالأرنب البريّة .

وبلغته مَعْمَعَة القتال بعد ذلك فترةً وجيزة،
وفيها الصراخُ والأنين وإطلاق الرصاص . ثمّ تضاعل
لَغَطّ المعركة حتى تلاشى كليّاً، وعادت الطبيعة
إلى صمتها وهدوئها .



وشعر « فالتر شنافز » بحسّ قريب ، فانتفض مرتاعاً ، ولكنّه لم يرَ غير طائر صغير حطّ على أحد الأغصان فارتعشت الأوراق من لمسه ؛ وبقيت نبضات قلب « فالتر شنافز » تدقّ كالطبل ساعة كاملة من جرّاء تلك الصدمة !

أقبل الليل يرخي على الوهْد سُدوله ؛ وغرق الجندي في تفكير عميق : ماذا يفعل يا ترى ؟ ماذا سيحلّ به ؟ هل يعود إلى فرقته ؟ وكيف يكون ذلك ؟ ومن أي طريق ؟ وهبّه فعل ذلك ، فايّ مصير عساه يلاقي ؟ فلسوف يعود إلى حياة القلق والذُّعر والتعب والعذاب ، تلك الحياة التي عاشها منذ بداية الحرب ! كلاً ! فشجاعته لن تمكّنه من ذلك بعد اليوم ، وعزمه لن يصمّد في الرحلات التي تحيفّ بها أخطار من كلّ نوع :

ما العمل إذا ؟ فهو لا يستطيع الاختباء في ذلك الجُحر حتى نهاية الحرب . ولو لم يكن ضروريّاً أن

ياكل لما هاله مثل هذا الأمر ؛ ولكن لا بدّ أن يأكل كلّ يوم .

وهكذا قبع « فالتر شنافز » منعزلاً ، مدججاً بالسلاح في بزّته العسكريّة فوق أرض العدو ، بعيداً عن أولئك الذين يمكنهم الدفاع عنه ؛ فاصطفقت أوصاله رعشةً .

وبدت له فجأةً فكرةً طريفة : « كم أتمنى لو أكون أسيراً ! » واختلج فؤاده شوقاً الى الاستسلام للفرنسيّين . أسير ! فإذا تمّ له ما يريد ، سيجد الغداء والماوى في مأمّن من الرصاص والسيوف والخوف ، في سجن مريحٍ محكّم الحراسة . أسير ؟ ياله من حلم جميل ! واتخذ قراره للحال : « سأكون أسيراً ! »

نهض وفي نيّته تنفيذ قراره لساعته ، إلّا أنّه بقي جامداً وقد خامرته فجأةً أفكارٌ سوداء ومخاوفٌ جديدة : « أين يستسلم ؟ وكيف ؟ وإلى أين يتّجه ؟ » وإذ ذاك تعاقبت في مخيلته صور رهيبة ، صور الموت .

فهو سيتعرض للأهوال إذا ما هام على وجهه وحيداً
في متاهات الريف . وهبته التقى بعض الفلاحين؟ إن
أبصر الفلاحون هذا البروسي التائه ، هذا البروسي
الضعيف ، فسيقتلونه كما يقتلون كلباً مسعوراً !
سيجهزون عليه بمذاريهم ومعاولهم ومناجلهم
ومجارفهم ! ولسوف يطحنونه طحناً بما يُوغر صدورهم
من نقمة الهزيمة .

وماذا يحدث لو أنه التقى بعض المناوشين؟ إنهم
لا يخضعون لنظام أو لانضباط ، فهم ولا ريب
يُعدمونه رمياً بالرصاص على سبيل التسلية ، ليسخروا
من ارتعاده وخوفه . وتخيل نفسه مُسنداً إلى أحد
الجدران تُحدق به فوهات اثنتي عشرة بندقية !

وماذا يحدث لو أنه التقى الجيش الفرنسي
النظامي؟ فقد يعتقد رجال المقدمات أنه أحد
الكشّافين ، أو أحد الشجعان البارعين ذهب منفرداً
للاستطلاع ، وسيطلقون النار عليه . وراحت تخيلته
تبث له صور الحادث : رأى الجنود منبطحين بين

الأعشاب وهم يطلقون عليه النار ، وتخيل إليه أنه
يسمع دوي الرصاص ، فيما سقط وقد ثقتب جسده
إصابات عديدة جعلته شبيهاً بالمصفاة .

وعاد فجلس واليأس يتأكل قلبه . لقد بدا له
الوضع مازقاً لا مخرج منه .

كان الليل قد حلّ تماماً ، حالك السواد ، هادئاً ،
صامتاً . واستسلم « فالتر » إلى السكينة ، إلا أن
انتفاضات كانت تكهرب حواسه كلما سمع حفيفاً
خفيفاً مبهماً يعبر الدياجير بين الفينة والأخرى .
وكان نعيق البوم يمزق صدره ، فيزيد من ذعره
واضطرابه . وجحظت عيناه وهو يُجيل الطرف في
الظلمة ؛ فقد كان يظن في وسواسه أنه يسمع وقع
أقدام على مقربة منه .

وأمضى « فالتر » ساعات طويلة في غمرة القلق
الرهيب ، ثم نظر فرأى السماء من خلال الأغصان ،
وقد وشّحها النور . عندئذٍ شعر بارتياح لا حد له ،
فهدأت أعصابه وتراخت ، واطمان قلبه ؛ فتناقل

جفناه ، وغمضت عيناه ، فاستسلم لسبات عميق .

حين أفاق كانت الشمس قد استقرت في كبد السماء . فالوقت إذاً ظهر . لم يكن أيّ حسّ يعكّر صفو الحقول الكئيبة . وشعر « فالتر شفافز » أنّ جوعاً حاداً قد حلّ في أحشائه . وسال اللُّعاب من فمه بمجرد تفكيره بالنّقانق اللذيذة التي تُقدم للجنود ، فازداد به الجوع وطأةً .

نهض من مكانه وخطا بضع خطوات ، فتخاذلت ساقاه ، فعاد إلى مكانه يفكّر . وبقي هكذا وقتاً طويلاً يستعرض الحلول ولا يستقرّ على رأي . كان شقياً مُثقالاً بالهمّ تتجاذبه تيارات عديدة متناقضة .

ولاحت له فكرة ظنّ أنّها منطقيّة وعملية : سيتربّب مرور قرويّ منفرد أعزل من السلاح ، ولسوف يهرع إليه ويحاول إقناعه بتسليمه للفرنسيّين .

خلع « فالتر » خوذته ومدّ رأسه من خلال الجُحر بكثير من الحذر . لم يكن هنالك أيّ إنسان قط .

ولكنّ تراءى له في البعيد قصر كبير ذو أبراج عالية .

وتريّث الجنديّ حتى المساء وهو يعاني الآلام رهيبة ، لا يرى غير الغربان ، ولا يسمع غير أنين أحشائه الخاوية .

وعاد الليل فهبط بسواده الثقيل ؛ فتمدّد في قاع ملجئه ونام نوماً محموماً ، نومَ رجل يتضور جوعاً .

وطلع الفجر عليه من جديد ، فعاد إلى مركز مراقبته . كان الريف مُقفراً كما في الليلة الماضية . وإذا بجحوف جديد ينتابه : خوف الموت من الجوع ! فتخيّل أنّه مسجّى على ظهره في جحره وعيناه مغلقتان ، ورأى حشرات صغيرة مختلفة الأشكال تقترب منه فتسلّل تحت ثيابه لتنهش جلده البارد ، فيما راح غراب كبير ينقُد عينيه بمِنقاره الحادّ !

وُجّن جنونه ، ظانّاً أنّه سيُغمى عليه من شدّة الضعف ، وأنّه لن يقوى بعدُ على السير . وإذ تأهب

للانطلاق نحو القرية أبصر ثلاثة فلاّحين منصرفين إلى الحقول ومداريهم على أكتافهم ، فغاص في مخبئه .

وما إن خيّم الليل على السهل حتى خرج «فالتر» من حفرة بتان ، ومشى إلى القصر البعيد منطوي الظهر ، خائفاً ، وقلبه يتبيّض تبضاً متسارعاً . وقد آثر الذهاب إلى القصر لأنّ القرية كانت تبدو له خطيرة خطورة غاب تعجّ فيه النّمور .

كان النور يتسرّب من نوافذ القصر الأرضيّة ؛ وكانت إحدى هذه النوافذ مُشرّعة ، فانبعثت منها رائحة لحم مشويّ جاءت تداعب معدة «فالتر شنافز» ، فأخذ يلهث ، وهو يشعر كأنّ مغنطيساً يجذبه إلى الداخل . وعصفت بقلبه جراءة مستميّة مفاجئة ؛ ومن غير تفكير ، وقف إلى النافذة وخوذته على رأسه !

كان ثمانية من الخدم يتناولون الطعام حول مائدة كبيرة . ورفعت خادمة منهم كأسها لتشرب ، ولكنها

سرعان ما ألقته من يدها ، وبقيت فاغرة فاها وعيناها جاحظتان ؛ فاستدار الجميع ينظرون إلى حيث كانت تنظر . وأبصروا العدو !

يا إلهي ! إن البروسيين يهاجمون القصر !

وكانت صيحة واحدة انطلقت من حناجرهم جميعاً ، صيحة ذعر مروّعة ، أعقبها نهوض لاغظ ، وتدافع جماعيّ ، وتشابك فوضويّ ، واندفاع نحو المخرج في فرار هائم . وتساقطت الكراسي ، وكان الرجال يدفعون النساء أرضاً ويمرون من فوقهن . وماهي إلاّ ثوانٍ حتى لم يبقَ في القاعة أحد ؛ وانتصبت المائدة التي كانت عامرة بما لذّ وطاب من المأكّل والمشرب قبالة «فالتر شنافز» المذهول ، وهو ما زال واقفاً إلى النافذة .

وبعد برهة من التردّد وجيزة قطع حاجز النافذة وتقدّم نحو الصحون . كان يرتعد تحت وطأة الجوع الملحّ الساخط ، غير أنّ جزعاً مبهماً كان يردعه

ويثقل أعضائه . أصغى بانتباه ، فإذا بالمنزل يهتز في كل جانب من جوانبه : فالأبواب في انفتاح وانغلاق ، والخطى فوق رأسه ، في الطابق العلوي ، حائرة معجلة ؛ وبات البروسي يصغي إلى تلك الضوضاء وهو شديد القلق . ثم سمع حساً غريباً ، فكان أجساداً كانت تتساقط على التراب الطري عند أسفل الجدران . أجل ! إنها أجساد الفارين من جماعة القصر ، وثبوا من الدور الاوّل مبتعدين من وجه العدو !

ثم همدت الحركة والبلبله ، وغدا القصر ساكناً كالقبر .

جلس « فالتر شنافز » إلى صحن لم يكن قد مسّه أحد ، وشرع يأكل . كان يزدرد لُقمًا كبيرة وكانّه يخشى أن يقطع أحد عليه طعامه فلا يتسنّى له أن يلتهم كل شيء ! كان يُلقي الطعام في فمه بكلتا يديه ، فتهبّط الأكداس إلى معدته بسرعة فائقة نافخة عنقه في طريقها . وكان يتوقّف أحياناً وهو يكاد أن ينشقّ كأنبوب مُتخَم ، فيتناول إبريق الخمر

ويكرع فيه فينظّف بلعومه كما تنظّف ماسورة مسدودة .

أتى على الصحن كافتة ، وأفرغ الزجاجات واحدةً واحدةً ؛ فإذا به قد أسكره الشرب والأكل على السواء ، فغداً خبيلاً ، ممتقع اللون ، مشوش الرأس ، يشهق باستمرار . ففكّ أزرار بزّته وهو يتنفّس بصعوبة ولا يستطيع أن يأتي حركة . وكانت عيناه تغمضان وقد تخدّرت حواسه ، فوضع يديه على الطاولة وأسند إليها رأسه ، فانطلق من عالم الواقع إلى عالم الأحلام في طيران لطيف هانيء .

*

كان البدر ينير الأفق فوق أشجار الحديقة . إنها لساعة باردة تسبق إطلالة الصباح .

وبدأت أشباح تتسرّب إلى الغياض عديدة صامتة . ومن وقت لآخر كانت أشعة البدر تعكس في الظلمة بريق نصل فولاذي .

كان القصر صامتاً ، وكان طيفه الأسود الكبير
شاخاً مهيباً . في الدّور الأرضي كان النور ينبعث
من نافذتين .

وفجأة دوّى صوت راعد يصيح :

- إلى الأمام ! تقدّموا ! هجوماً يا أولادي !

وفي لحظة خاطفة سقطت مصاريع النوافذ
والابواب تحت دفقة من الرجال الذين اجتأحوا القصر
يحطّمون ما تقع عليه أيديهم . وما هي إلاّ ثانية
حتى كان خمسون من الجنود المدجّجين بالسلاح قد
دخلوا إلى المطبخ حيث كان « فالتر شفافز » يرقد
بسلام . وصوّب الجنود بنادقهم الخسین إلى صدره ، ثمّ
قلبوه وقبضوا عليه وشدّوا وثاقه .

تملّكه الدهول ، وراح ينظر إلى الجنود يسيئون
معاملته وهو يكاد أن يجنّ من الخوف .

وأقبل عسكريّ تزيّن صدره أوسمةً عديدة ،
فوضع قدمه على صدره وصاح به :

- إنك أسيري ، استسلم !

ولم يسمع البروسنيّ غير كلمة « أسير » ، فقال
وهو يئنّ : « يا ، يا ، يا » .

حمل الأسير وربط إلى كرسيّ ، وراح المنتصرون
ينظرون إليه بفضول ؛ وتراخى الكثيرون منهم على
الكراسي وقد أنهكهم التأثر والتعب .

أمّا هو فكان يبتسم ، لأنّه وقع أخيراً في الأسر !
ودخل ضابط آخر فقال :

- سيدي الكولونيل ، لقد أركن الأعداء إلى الفرار !
ويبدو أنّ الكثيرين منهم أصيبوا بجروح . فنحن نسيطر
الآن على الموقف سيطرة تامّة .

وصاح العسكريّ البدین وهو يمسح العرق المتصبّب
من جبينه :

- ألنصر لنا !

وتناول من أحد جيوبه مفكرة صغيرة ، ودوّن
فيها : « بعد قتال ضارّ أرغم البروسيون على التراجع ،

حاملين معهم قتلاهم وجرحاهم الذين يقدر عددهم
بخمسين رجلا . وقد وقع كثيرون منهم في قبضتنا .

وتابع الضابط الشاب سائلا :

- ما هي الإجراءات التي ينبغي أن أقوم بها الآن ،
يا سيدي الكولونيل ؟

أجاب الكولونيل :

- سنسحب قبل أن يقوم العدو بهجوم معاكس
بالمدفعيّة وبقوّة متفوّقة .

وأصدر بعدئذ أمرا بالجلء عن المكان .

وتنظّمت صفوف الرّتل في الظلمة تحت جدران
القصر ، وتحرك الجنود يحيطون « بفالتر شنافز » من كل
صوب ، وهو مكبّل ، وقد صوب إليه ستة من المحاربين
مسدّساتهم .

وانفصل بعض الرجال عن الرتل للاستطلاع ؛
فكانت المسيرة حذرة يتخلّلها بين الفينة والفينة
توقّفٌ خاطف .

وعند بزوغ الفجر وصل الرجال إلى دار البلديّة
في « روش - أوزيل » ، وكان رجال حرسها الوطنيّ
هم الذين قاموا بمأثرة السلاح تلك .

كان السكّان ينتظرونهم قلقين ساخطين ؛ وحين
شاهدوا خوذة الأسير تفجّرت صدورهم بصيحات
صاخبة . فكانت النساء يهولن بأيديهنّ ، وبكى من
بينهنّ بعض العجائز . ورمى رجل هرم البروسي
الأسير بعكّازه فأصاب به أنف أحد الحراس وجرحه !
وكان الكولونيل يصيح :

- إسهرّوا على سلامة الأسير .

وفي دار البلديّة زجّ « بفالتر شنافز » في السجن
بعد ما فكّ وثاقه ؛ وقام على حراسة المبنى متّئا
رجل بالسلاح الكامل .

عندئذ راح البروسيّ النّشوان يرقص متهلّلا ،
على الرغم من أعراض سوء الهضم التي كانت تعكّر
مزاجه ، وهو يطلق صيحات الفرح ، حتى سقط إلى

إنه الآن أسير ! لقد نجا من الموت !

وهكذا كانت استعادة قصر « شامبيني » بعد ما
سيطر عليه العدو مدة ست ساعات !

وأما الكولونيل « رانييه » ، تاجر القماش الذي
أشرف على هذه العملية على رأس حرس « روش -
أوزيل » الوطني ، فقد مُنح وساماً مكافأة له على
بطولته !

الشار

كانت أرملة « بولو سافيريني » تُقيم مع ابنها
الوحيد في منزل حقير داخل أسوار « بونيفاسيو »^(١) ،
وهي مدينة مبنية فوق لسان من الجبل ناتيء ، حتى
لتبدو في بعض الأماكن معلقة في الفضاء فوق البحر ،
تُشرف من على المضيق الذي تحف به الصخور
الحادة ، وعلى ساحل « سردينيا » المنخفض . وهناك ،
عند أقدامها ، من الناحية الأخرى ، كان شطر من
الجرف يزخر المدينة كلياً أو يكاد ، وهو لها بمثابة
المرفأ يمكن قوارب الصيد الإيطالية والسرديّة

(١) بونيفاسيو : مدينة في جزيرة « كورسيكا » .

الصغيرة من التقدم إلى جوار بعض المنازل القريبة من الماء ، عبرَ حلقة طويلة بين الصخور العالية المستقيمة . ولم تكن تؤم ذلك الممر من السفن غير سفينة نقل بخارية قديمة تعمل على خط « أجاكسيو »^(١) .

وكانت مجموعة المنازل المنشورة فوق ذلك المرتفع الأبيض ترصع الجبل بنقطة تزيد بياضه بياضاً ، وهي تبدو وكأنها أعشاش الجوارح معلقة على الصخر ، فوق ذلك الممر الرهيب الذي لم تكن السفن لتغامر في عبوره في أي وقت من الأوقات . وفي تلك المنطقة لا تعرف الرياح هواده ، فهي ترهق الساحل العاري وتقرضه ، وتعيث في ضفته فساداً في تسللها عبر المضيق . وأما سحائب الزبد الباهت العالقة بنواتئ الصخور المتراسة السوداء ، فهي شبيهة برقع صغيرة من القماش الدائر تُرغي وتنبض فوق أديم الماء .

(١) أجاكسيو: عاصمة جزيرة « كورسيكا » .

كان منزل الأرملة « سافيريني » ، الملحم بطرف الجرف نفسه ، منفتحاً بنوافذه الثلاث على ذلك الأفق المتوحش المكتئب .

لم يكن أحد يعيش معها في ذلك المنزل غير ابنيها « أنطوان » ، وكلبتها « سيميانت » ، وهي بهيمة هزيلة ذات وبر طويل قاسٍ ، من فصيلة الكلاب التي تحرس القطعان . وكان الشاب يصطحبها للصيد .

وذات مساء لقي « انطوان سافيريني » حتفه ؛ فقد قتله « نيكولا رافولاتي » غدراً بطعنة خنجر على أثر مُشادة ، ثم فرَّ هارباً إلى « سردينيا » تحت جنح الليل .

حين تسلّمت الأم العجوز جثة ولدها ، التي حملها إليها بعض الأهالي ، لم تبك البتة ، بل وقفت تُديم إليها النظر ، ثم مدّت يدها المتجعّدة تلامس بها الجثة ، وأقسمت على الثأر . ولم تشأ أن يبقى معها أحد ، بل أغلقت بابها واختلت بابنها القليل مع

« سيميانت » التي أخذت في النُباح . وبقيت تنبَح
بلا انقطاع ، وهي منتصبه أمام طَرَف السرير ،
تتطاول نحو سيدها ، وذنُبها مشدود بين قوائمها
كانت جامدة جمودَ الأمّ التي مالت في تلك اللحظة
فوق الجُثّة تذرِف عليها دمعا سخيا وهي تُنعم
فيها النظر .

كان الشابّ المسكين مسجى على ظهره ، في سترته
الغليظة المثقوبة والممزّقة عند صدرها ، وكأنّه مستسلم
لسُبات عميق . كان مضرّجا بالدماء التي غطّت قيصه
وِصداره وسراويله ووجهه ويديه . وكان بعض الدم
قد تخثّر في لحيته وشعره .

وراحت الأمّ العجوز تخاطبه ، فصمتت الكلبة
لدى سماعها صوتَ سيّدها . قالت :

— كن مطمئنا ، سانتقم لك يا بُنيّ ، يا ولدي ،
يا ولدي المسكين . نَمْ ، نَمْ ناعمَ البال ، فسانتقم لك ،
أتسمع ؟ إنّ أمك لتعيدك بذلك ! وأنت تعلم أنّ

أمك تبيّر دائما بوعدها .

وانحنت عليه برفق تقبّل شفّيته الزرقاوين بشفتيها
الباردتين .

وعادت « سيميانت » إلى أنينها . كانت تطلق نواحا
متّصلا ، محزنا ، مرعبا . وبقيت المرأة وكلبتها على هذه
الحال إلى انبلاج الصبح .

وفي اليوم التالي وُوري « انطوان سافيريني »
الثرى ؛ ولم يمضِ زمان طويل حتى كان ذكره قد
انطفا في « بونيفاسيو » .

لم يخلف من الأقارب أخا أو نسيبا . لم يكن
أحد ليفكر إذا بأن يثار له . ولكن الأمّ ، تلك
العجوز المسكينة ، كانت تفكر بذلك من غير
انقطاع .

في كلّ يوم كانت تنظر صباح مساء إلى نقطة
بيضاء على الساحل البعيد ، في الناحية الأخرى من المضيق .
لإنها « لونغوساردو » القرية السردية الصغيرة ، التي

كان المجرمون الكورسيكيون المطاردون يلجأون إليها ؛ هم يشكلون قوام السكان في تلك الدسكرة الجارية لسواحل موطنهم ، ينتظرون بفارغ صبر سائحة العودة إلى بيوتهم . وكانت الأم تعلم أن « نيكولا رافولاتي » قد لجأ مثلهم إلى تلك القرية الصغيرة .

كانت تجلس إلى النافذة النهار كله تحديق إلى ذلك المكان البعيد وهي تفكر بالانتقام . ولكن ما حيلتها وهي من غير سند ، عاجزة قد شارفت الموت؟ بيد أنها قد أقسمت على الثار ، وقد أدت قسمها على الجثة نفسها ، فكان محالاً أن تنسى ، ولم يكن من سبيل للانتظار . فما العمل إذا ؟ باتت لا تذوق للنوم طعماً ، ولا تجد للراحة والطمأنينة سيلاً ؛ فقد أكبت بعناد حثيث على إيجاد وسيلة للانتقام . وكانت الكلبة ممددة عند قدميها ، ترفع رأسها من حين إلى آخر تعوي عالياً على تلك الوتيرة وكأنها تناديه ، أو كان ذكراه قد بقيت منقوشة في لبها الذي عاف الغراء والسُلوان .

وذات ليلة ، فيما عادت « سيميانت » إلى أنينها المعتاد ، خامرت الأم فكرة مفاجئة ، فكرة متوحش . حقود قاسي القلب ، فراحت تعالجها حتى الصباح . ونهضت عند بزوغ الشمس إلى الكنيسة ، وهناك خرّت أمام ربها ساجدةً تصلي ، ضارعةً إليه ، طالبةً أن يمنحها السند والعون وأن يهبها القوة اللازمة لأن تثار لابنها .

ثم عادت إلى البيت . وكان لديها ، في باحة المنزل ، برميل صغير عتيق ، فقلبته وأفرغت منه ماء الميازيب الذي كان ينصب فيه ، وثبته إلى الأرض بالحجارة والأوتاد ، ثم قيّدت « سيميانت » إلى ذلك المرقد المختلق وتركتها لحالها .

راحت تذرع غرفتها بلا هواده وهي لا تزيح بصرها عن الساحل السردني ، فالقاتل الذي اغتال وحيدها كان هناك !

وعوت الكلبة طوال النهار والليل . وفي الصباح جاءت العجوز بصحفة فيها ماء ، ولكنها لم تأتها

بشيء من الحساء أو الخبز .

وانقضى يوم آخر . وأما « سيميانت » ، التي أدركها الوهن من قلة الطعام ، فقد نامت نوماً محمواً . وفي اليوم التالي كانت عيناها متوقدتين برأقتين ، وكان بدنهما مُقشعراً ، وهي تحاول من غير جدوى ، وبصورة يائسة ، أن تُفلت من السلسلة التي تقيدها .

في مطلع النهار ذهبت الأم « سافيريني » إلى أحد جيرانها وطلبت إليه أن يعطيها حزمتين من القش ؛ ثم عادت أدراجها ، وتناولت أسملاً بالية كانت في الماضي ثياباً لزوجها ، فحشتها بالقش حتى انتفخت واتخذت مظهر رجل حقيقي ؛ ثم غرست قضيباً في الأرض أمام مرقد « سيميانت » وعقدت إليه الشخص المصنوع الذي بدا وكأنه منتصب على قدميه . وبعد ذلك جعلت له رأساً كرأس الآدميين من رزمة قماش .

راحت الكلبة تنظر إلى شخص القش ذلك ، وقد

انتابها الفُضول ، وهي صامتة على الرغم من الجوع الذي كان يمزق أحشاءها .

وخرجت العجوز إلى القصاب فابتاعت قطعة طويلة من اللحم القديد الأسود . وعادت إلى البيت فاشعلت ناراً في الباحة بالقرب من مربط الكلبة ، وشرعت تشوي اللحم . واضطربت « سيميانت » ، وأخذت تثب وهي تُزبد وكأنها قد أصيبت بمس من جنون ، وعيناها عالقتان بقطعة الشواء التي تسرب أريجها إلى أعماقها .

وبعد ما فرغت الأم من تحضير شوائها تناولته وربطته حول عنق شخص القش ، فغدا وكأنه جزء منه لا يتجزأ . ثم انطلقت إلى الكلبة ففككت وثاقها .

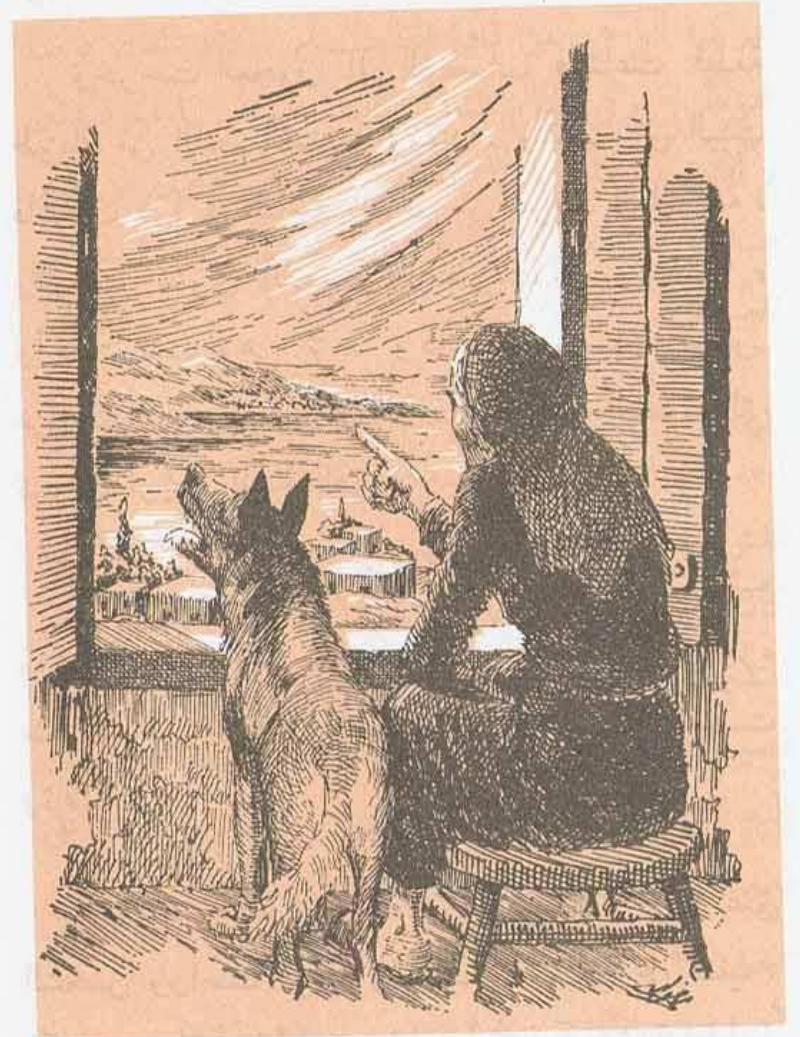
وبقفزة جبارة وصلت « سيميانت » إلى عنق الشخص وراحت تمزقه وقوائمها مركزة على كتفيه . فكانت تهبط أرضاً بين حين وآخر وفي شدقها قطعة

من فريستها ، ثم تعود فتثب من جديد مُعملةً
أنيابها في الجبال ، ملتزمة اللحم شيئاً بعد شيء
وهي ما فتئت تزداد ضراوة . ولم تَمُصْ دقائق حتى
كانت الكلبة قد نهشت وجه الشخص ومزقت العنق
إرباً .

كانت العجوز تنظر صامتةً ، بارقة العين ، وهي
لا تأتي حركة . وأوثقت كلبتها بعد ما شبت ، وعمدت
إلى تجويعها بعد ذلك يومين آخرين ، ثم عادت في الأيام
التالية إلى تدريبها العجيب تكراراً .

وبقيت مدةً ثلاثة أشهر تضرّي كلبتها برجل
القشّ وتعودها الحصول على طعامها بجدّ أنيابها . ثم
أصبحت لا تربيطها ، بل كانت تعطيها إشارة من يدها
فتنقضّ على الشخص تمهشه .

ثم درّبت المرأة كلبتها على تمزيق الشخص والتهامه
من غير إن تطوّق عنقه بالقديد المشوي كما كانت تفعل
في البداية ؛ وكانت من ثمّ تقدّم لها الشواء مكافأةً
على عملها .



فدخلت إلى أحد الأفران تسأل الخبّاز عن مسكن
« نيكولا رافولاتي » فأخبرها الخبّاز أن « رافولاتي »
قد عاد إلى مزاولة النجارة ، مهنته القديمة . وكان
« نيكولا » في تلك الساعة بالذات يعمل وحده داخل
محلّه .

دفعت العجوز بابه وصاحت به قائلة :

- هي ! نيكولا !

فالتفت . عندئذٍ أفلتت الكلبة وصاحت بها :

- إنطلقني ! إنطلقني ! إنطلقني ! إنطلقني !

وانطلقت الكلبة كالمجنونة فانقضت على الرجل
وأخذت بخنأقه . ومدّ الرجل يديه للدفاع عن نفسه ،
ولكنه سقط على الأرض يتدحرج مع الكلبة ؛ وظلّ
يتخبّط بضع ثوانٍ وهو يعقر الأرض برجليه . ثمّ
هدت أنفاسه ، فيما كانت « سيمييانت » تمزّق عنقه شرّ
تمزيق . وفيما بعد ، ذكر اثنان من جيران « نيكولا
رافولاتي » أنّهما شاهدا فقيراً هَرَمًا يخرج من المحلّ

ما كان نظر « سيمييانت » يقع على شخص القش
حتى ترتعد ، فتستدير ناظرةً إلى سيدتها ، فتصيح
تلك بصوت هادر وهي تشير إلى الهدف بينانها :
« إنطلقني ! »

ولمّا أيقنت الأمّ « سافيريني » أنّ الساعة قد أُرِفَت ،
ذهبت إلى الكنيسة في صبيحة يوم أحد للاعتراف
والمناولة ، فأدّت واجبها الدينيّ بجرارة وخشوع . وبعد
ذلك لبست ملابس الرجال فعدت في هيئة فقير رثّ
الثياب . واتّفتت مع صياد من « سردينيا » أقلّها مع
كلبتها إلى الضفّة المقابلة من المضيق .

حملت معها في كيس من القماش قطعة كبيرة من
اللحم القديد الأسود . وكانت قد بدأت تجوّع
« سيمييانت » منذ يومين . وخلال الرحلة القصيرة
كانت تقدّم لها الكيس لتشمّ رائحة اللحم ، وتحرّضها ،
فتشير هياجها .

وصلت المرأة مع كلبتها إلى « لونغوساردو » ،

وهو يعطي كلبته من كيس في يده قطعاً من طعام
أعمر راحت تلتهمه بنهم شديد .
وفي المساء كانت العجوز قد عادت إلى منزلها ؛ لقد
نامت تلك الليلة نوماً هائلاً .

أَلصَّ دِقَّان

كانت «باريس» تنوء تحت الحصار ، تتضور جوعاً
وفي حناياها حشرة الموت . لم يبقَ الدوري يرفرف
طروباً فوق قرميد المنازل ؛ أما الناس فقد طفقوا
ياكلون أيّ شيء .

في صبيحة يوم مُشرق من أيام كانون الثاني ، بينما
كان «موريسو» يذرع الشارع كثيباً ، ويداه في
جيبَي سراويله ، والفراغ يتأكل أحشاه ، إذ به
أمام رجل استوقفه ، فتذكره للحال : إنه «سوفاج» ،
رفيقه القديم الذي كان يلتقيه في صيد السمك .

قبل نشوب الحرب كان «موريسو» يخرج للصيد

فجرَ كلُّ أحدٍ حاملاً قصبه الخيزُران بإحدى يديه،
وعلى ظهره عُلبةٌ من تنك، فيركب قطار «أرجانتوي»،
لينزل في «كولومب»، ومن هناك ينطلق إلى جزيرة
«مارانت» مشياً على قدميه . وفي جنة أحلامه تلك
كان يُكبّ على صيد الأسماك من غير توانٍ، ويبقى
هكذا حتى حلول الليل .

هناك كان يلتقي رجلاً قصير القامة، بدينًا،
بشوشًا، اسمه «سوفاج»، يحبّ صيد الأسماك
كما يحبّه هو، فكانا يقضيان في الغالب نصفَ نهار
كاملاً، جنباً إلى جنب، يمسك كلٌّ منهما بقصبته،
وقدماهما متدلّيتان في مجرى الماء؛ فانعقدت الصداقة
بين الاثنين بعد طول لقاء .

كانا أحياناً يجلسان صامتين وأحياناً يتجادبان
أطراف الحديث . إلاّ أنّهما كانا متّفقين بصورة
مدهشة في صمتها الطويل، إذ أنّ ذوقهما واحد
ومشاعرهما متشابهة .

في الربيع، وفي الصباح الباكر، حين كانت

الشمس تنشر على صفحة النهر سحابة بخاريّة شفافة
تنساب مع الماء، وتبعث في ظهر الصيادين المتحمّسين
حرارةَ الفصل الجديد، كان «موريسو» يقول لرفيقه
أحياناً :

- يا للعدوبة !

فيجيب «سوفاج» :

- لا أعذب ولا أحلى !

وكانت هذه الكلمات القليلة كافية للتعبير عن
تجاوبها وتأثرهما .

وفي الخريف، عند الغروب، حين كانت السماء
تتضرّج بدماء الشمس الراحلة، فتعكس على صفحة
الماء صور الغيوم القانية، وتخلع على النهر بكامله
وشاحاً أرجوانياً، وتضرم في الأفق ناراً متوقّدة،
وتنثر طلاءها الذهبيّ على الأشجار التي تسري في عروقها
رِعةُ الشتاء، كان «سوفاج» ينظر إلى «موريسو»
مبتسماً، فيقول :

- يا له من منظر رائع !

فيجيبه « موريسو » نشوان ، ومن غير أن يحول نظره عن عوامته :

- إن هذا لأجل من الشارع ، أليس كذلك ؟

وحين تقابلا في ذلك النهار ، تصافحا بجملة ، والتأثر بادٍ على محياهما لالتقائهما في ظروف الحرب العسيرة ، وتنهّد « سوفاج » ، وهمس في أذن صديقه :

- يالها من أحداث رهيبة !

فأجاب « موريسو » وهو يئنّ اكتئاباً :

- يا للخسارة ! أنظر إلى هذا الطقس الجميل ؛ إنه أوّل نهار مشرق هذه السنة.

ففي الواقع ، كانت السماء زرقاء الأديم ، تشعّ بالنور .

وسارا جنباً إلى جنب ، حالمين ، حزينين ؛ وأردف « موريسو » قائلاً :

- وصيد السمك ؟ ألا تحينّ إلى صيد السمك ؟ يا لها

من ذكرى جميلة .

وتساءل « سوفاج » متحسراً :

- متى نعود إليه يا ترى ؟

دخل الصديقان إلى مقهى صغير فتناولا كأس شراب ، ثم انصرفا وعادا إلى التنزه على طول الأرصفة .

توقّف « موريسو » فجأة وقال لصديقه :

- ما رأيك في كأس ثانية ؟

فراقت الفكرة « سوفاج » . قال :

- فليكن ما شئت .

وعادا فدخلا إلى تخمارة أخرى . خرجا وهما يترنحان ، وقد انتشيا بتأثير الشراب الذي ملأ معدتيهما الخاويتين . كان الجوّ عذبا ، والنسيم العليل يداعب وجهيهما .

قال « سوفاج » مستوقفاً رفيقه ، وقد أكمل

الهواء الرطب ثَمَلَه :

- ما رأيك في الذهاب ؟

- إلى أين ؟

- إلى صيد السمك طبعاً !

- ولكن إلى أين ؟

- إلى جزيرتنا . إن المراكز الفرنسية الأمامية

على مقربة من « كولومب » . أنا أعرف الكولونيل

« ديمولان » . و يقيني أن اجتيازنا لن يلاقي أية

صعوبة .

إرتعش « موريسو » رغبة وقال :

- إتفقنا . هيا بنا .

ثم افترقا على أن يذهب كلُّ منهما لتحضير

معدّاته .

ولم تنقض ساعة حتى كانا يسيران جنباً إلى جنب

عبر الطريق الكبيرة . ووصلا إلى الدارة التي كان

الكولونيل يحتلّها ، فابتسم لهما وقبل بتحقيق

رغبتهما ، فانصرف الصديقان مزوّدين بإذن خاضٍ
للمرور .

وما هي إلاّ دقائق حتى كانا يجتازان المخافر الأمامية ،

فعبرا « كولومب » وهي مقفرة ، وإذا بهما بمحاذاة الكروم

الصغيرة التي تنحدر نحو « السين » . وكانت الساعة قد

قاربت الحادية عشرة .

في الجهة المقابلة كانت « أرجانتوي » أشبه بقرية

ميتة . وكانت مرتفعات « أورجومون » و « سانو »

تشرف على المنطقة بكاملها . وأما السهل الكبير الذي

يمتدّ حتى « نانتير » ، فقد كان خلاء ، بشجيرات

كِرَزِه العارية ، وباراضيه الشهباء .

أشار « سوفاج » بينانه إلى الذرى وهمس قائلاً :

- إن البروسيين هناك .

فاعترت الصديقين في تلك البقاع القاحلة

قُشَعْريرةُ القلق .

البروسيون ! لم يقع عليهم بصرٌ قط ، ولكن

السكان كانوا يشعرون بدنوهم منذ شهور طويلة ،
حول « باريس » ، يفتكون بـ « فرنسا » ويعملون فيها
السلب والجوع وسفك الدماء ، غير منظورين ، ولكن
ذوي سَطوة وبأس . وكان ذعرُ خرافيٍّ يسيطر على
القلوب ، يرافقه حقد على ذلك الشعب المجهول
المظفر .

قال « موريسو » متلعثمًا :

- ماذا نفعل فيما لو التقينا بعضهم ؟

فاجاب « سوفاج » والسخرية الباريسيّة المعهودة
في كلامه :

- تقدّم لهم سمكاً مقلّياً ...

بيد أنّها وقفا برهة متردّدين ، وقد بعث الصمت
المحدق في قلوبها قلقاً وخشية .

وأخيراً شدّ « سوفاج » عزمه وقال :

- هيا ، إلى الأمام ، ولنكن حذرين .

ثمّ نزل إلى أحد الكروم وراحا يزحفان منحنيين ،

متسترين بالشجيرات ، والعينُ منهما يقظة ، والأذن
صاغية . وللوصول إلى ضفّة النهر كان عليهما أن
يجتازا رُقعة من الأرض جدباء ، فانطلقا يعدّوان
بسرعة . وما إن بلغا الضفّة حتى تقوقعا مختبئين في
حنايا القصب الجاف .

إنخني « موريسو » وألصق أذنه بالأرض متحرّياً
ما إذا كان أحد يمشي في الجوار ؛ فلم يسمع شيئاً . لقد
كانا وحيدين .

إطمأنّ بالهما ، فجلسا ينعمان بمُتعة الصيد .

كانت جزيرة « مارانت » المهجورة المنتصبة قبالتهم
تحجبهما عن الضفّة الأخرى . وكان مبنى المطعم
الصغير مقفلاً ، وكان أمره قد أهمل منذ سنوات
طويلة .

علقت بصنّارة « سوفاج » سمكةٌ بوريّة أولى ؛
واصطاد « موريسو » الثانية . ومن وقت لآخر كنت
تري كلاً منهما يرفع قصبته وفي طرفها سمكةٌ صغيرة

فضية ترتعش طويلاً . إنه حقاً لصيد موفق عجيب !
راحا يضعان السمك في جيب من الشبّك ذي
عُقد ممتاسكة ، وقد اجتاحت قلوبهما نشوة غامرة ؛
إنها تلك النشوة التي تخالجك حين تعود إلى شيء
تحبّه بعد ما حرّمته زماناً طويلاً .

كانت الشمس الطيبة تصبّ دفتها في كتفیهما ،
فاقلعا تماماً عن الإصغاء ، ولم يفكرا بشيء : إنهما في
عزلة تامّة عن بقية العالم ، إنهما يصطادان .

واهتزّ الحضيض فجأة بدويّ بعيد ، وكأنه صادر
من أعماق الأرض . إنه المدفع يقصيف .

أدار « موريسو » رأسه ، فأبصر من فوق الضفة ،
هناك ، إلى اليسار ، طيف جبل « مون - فاليريان »
الشاسع ، الذي علت جبينه عُفرة بيضاء من دخان
البارود .

وللحال انطلق دفق من الدخان آخر من رأس
القلعة ، تبه دوي عاصف .



وتعاقبت الانفجارات ، فكان الجبل يصعد من
حين إلى حين لهائه القاتل ، وينفث زفيراً من بخار
أبيض كان يتصاعد نحو السماء ببطء فيستقر في كبدها
رقعة من غمام .

هزّ « سوفاج » كتفيه وقال :

- ها هم يعودون إلى القصف .

وأما « موريسو » ، الذي كان ينظر بقلق إلى
ريش عوامته يغوص في الماء مرّة تلو الأخرى ، فقد
شعر بغتة بغضب الرجل الآمن إزاء أولئك الكلبين
الذين يتعاركون على هذه الشاكلة ، وقال متدمراً :

- إنها لرعونة غاشمة أن يقتتل الناس هكذا .

قال « سوفاج » :

- لو كانت هناك جمهورية لما أعلنت الحرب ...

وقاطعه « موريسو » :

- في النظام الملكي تكون الحرب في الخارج ، وأما

الجمهورية فحروبها داخلية .

وراحا يتناقشان بهدوء ، ويحلّان عقدة العضلات
الكبار بالمنطق السليم الذي يتحلّى به الرجال الوُدعاء
السُدّج . واستمرّ جبل « مون - فاليريان » يقذفُ حممه
بلا هوادة ، يدمر بقذائفه منازل فرنسيّة ، ويطحن
الرؤوس ، ويقضي على أحلام الرّغد والسعادة ، باعثاً في
قلوب النساء والفتيات والأمّهات ، هنالك ، في مناطق
أخرى ، آلاماً لا تُمحى .

قال « سوفاج » :

- هذي هي الحياة .

فأجابه « موريسو » ضاحكاً :

- قل بالحريّ إنه الموت .

ثمّ انتفضا مذعورين وقد شعرا بوقع خطي
وراءهما . واستدارا في آن معاً فأبصرا فوق كتفهما
أربعة رجال طوال القامة مسلّحين وملتحين ،
يعتمرون خوذاً ، وفي أيديهم بنادقُ صوّبوا إلى
رأسيهما .

أفلتت القصبتان من يديهما وراحتا تنحدران
متعرجتين مع مجرى النهر .

وقبض الرجال الأربعة على الصديقين بسرعة ،
وألقوا بهما في زورق أقلهما إلى قلب الجزيرة .

ورأى الصديقان وراء المنزل ، الذي اعتقدا أنه
مهجور ، نحواً من عشرين جندياً ألمانياً .

وبادرهما بالكلام رجلٌ أشعث كان جالساً منفرج
الساقين على كرسيٍّ ، وفي فمه غليون خزفيّ كبير .
سألها بلهجة فرنسيّة ممتازة :

– هل وفقتما بصيدكما ؟

عندئذ تقدّم منه جنديٌّ ووضع عند قدميه الشبكة
المملوءة سمكاً . ابتسم البروسيّ وقال :

– أرى أنّ الحظّ كان حليفكما . ولكن الأمر يتعلّق
بموضوع آخر ، فاسمعا جيّداً ولا تضطربا .

« أنا أعتبركما جاسوسين مبعوثين في مهمّة لمراقبتي .
وباستطاعتي الآن أن أمر بإعدامكما ؛ فقد كنتما

تصطادان كي تموها مخطّطاتكما . إنّها الحرب . وبما
أنكما قد خرجتما عبر الخافر الأماميّة ، فانتما تعرفان
كلمة السرّ . أعطيتاني كلمة السرّ هذه أعفُ عنكما .

وأما الصديقان اللذان وقفوا شاحبين جنباً إلى
جنب ، تسري في أيديهما رعشةٌ عصبيّة ، فقد أطرقا
واجمين .

واستطرد القائد قائلاً :

– لن يعرف بذلك أحد . وستعودان ، كما أتيتما ،
بأمان . وسيتلاشى السرّ باختفائكما . أمّا إذا كان
جوابكما رفضاً ، فالموت لكما ، وفي الحال . فاخترنا
ما تشاءان .

وبقيا ساكتين لا ينبسان ببنت شفة .

وأردف البروسيّ بهدوء تامّ ، وهو يشير إلى النهر
بيده :

– فكّرا بأنكما ستكونان في قعر الماء هناك ،
بعد دقائق قليلة . أوليس لكما أهل ولا أقارب ؟

وبقي « مون - فاليريان » يُرعد من غير انقطاع .

وبعد ما رأى الألماني أنّ الصديقين يعتصمان بالصمت أصدر بعض الأوامر بلغته ، ثم غيّر موضع كرسيه كي لا يكون كثير القرب من الأسيرين . وأتى اثنا عشر رجلاً فاصطفوا على بُعد عشرين خطوة ، وبندقيّة كلّ منهم إلى جنبه .

وتابع الضابط قائلاً :

- أمامكما دقيقة واحدة لا أكثر .

ثم نهض فجأة وتقدّم من الفرنسيّين ، فتأبّط ذراع « موريسو » واختلى به ، ثمّ قال له بصوت خافت :

- أسرع ، قل لي ، ما هي كلمة السرّ ؟ لن يرتاب صديقك بشيء . ثمّ إنّني سأعفو عنكما إن أنت استجبت لمشيئتي .

لم يفه « موريسو » بكلمة .

ثمّ اختلى البروسيّ بـ « سوفاج » وطرح عليه

السؤال نفسه .

ولم يفه « سوفاج » بكلمة .

وعاد كلٌّ منهما إلى جانب صديقه .

وعاد الضابط يصدر أوامره ، فرفع الجنود بنادقهم .

ووقع نظر « موريسو » عفواً على الشبكة الملاي بالبورّي ، التي بقيت فوق العشب ، قيد خطوات منه . وكانت أشعة الشمس تداعب الأسماك وهي ما تزال تختلج في داخلها ؛ فاعتراه ضعف مفاجيء ، وتفجّر الدمع من عينيه ، وقال متلعثماً :

- ألوداع يا مسيو « سوفاج » .

وأجاب « سوفاج » :

- ألوداع يا مسيو « موريسو » .

وشدّ كلّ منهما يد الآخر ، وقد سرت في جسديهما قشعريرة طويلة .

وصاح الضابط :

- ألتار !..

فدوت الطلقات وكانت لها طلقة واحدة .

سقط « سوفاج » دفعة واحدة يعقر التراب
بانفه ؛ وأما « موريسو » ، وكان أكبر قامة ، فقد اهترّ
قليلاً ، ثم استدار على بعضه وانهار فوق جثة
صديقه ووجهه إلى السماء ، بينما راحت فقاقيع الدم
تندفق من قيصه الذي شقّ فوق صدره .

وعاد الضابط يصدر أوامر جديدة .

تفرّق الجنود ، وما لبثوا أن عادوا بجبال
وحجارة فرُبّطت إلى أقدام القتيلين ، وتقلوا الجثتين
إلى ضفة النهر .

وازداد « مون - فاليريان » عَصفاً ، وقد كلّته في
تلك اللحظة جبال من دخان .

حمل جنديان « موريسو » من رأسه ومن قدميه ؛
وحمل جنديان آخران « سوفاج » بالطريقة نفسها .
ودفع الجنود الجثتين بقوة ، فغاصتا في النهر وقد

شدّت بهما الحجارة إلى القاع بسرعة .

تعكّر صفو الماء فارتعش قليلاً ، ثم سكن أديمه ،
فيما راحت موجات صغيرة ترتطم بالشاطئ .

وطفا على سطح الماء بعض الدماء .

قال الضابط وهو ما يزال معتصماً بالهدوء :

- لقد أتى الآن دور الأسماك .

واستدار عائداً باتجاه المنزل .

ورأى كيس البوريّ الذي بقي فوق العشب ؛

فالتقطه ، وتفحصه ، ثم ابتسم وصاح :

- « فلهلم » .

أسرع جنديّ يرتدي مئزراً أبيضاً ، فدفع إليه

الضابط بصيد القتيلين وقال بلهجة أمرّة :

- أريدك أن تقلي لي في الحال هذه الحيوانات

الصغيرة وهي حيّة . فسوف يكون طعمها لذيذاً
للغاية .

ثم عكف على غليونه يدخن بشغف .

الشَّحَّاز

لقد عرف أياماً خيرةً فيما مضى ، على الرغم
من شقائه وعاهته .

كان في الخامسة عشرة من عمره حين هُشِّمت
قدميه عربةً على طريق «فارفيل» ؛ وهو ، منذ ذلك
الحين ، يجوب الطُّرُقَات حايباً لا يملك شروى نقير ،
يمدّ يده متسوّلاً ، يغشى باحات المزارع مترجِّحاً
بين عُكَّازيه يرفعان كتفيه إلى مستوى أذنيه ، فيغور
رأسه بينهما كوادٍ بين جبلين .

كان كاهن «بيليت» قد عثر عليه على قارعة
الطريق وهو ما زال طفلاً رضيعاً ، ليلة عيد

الأموات ، فأطلق عليه اسم « نيكولا توسان » . وقد شبَّ وهو ربيب الإحسان ، بعيداً عن عالم التربية والمعرفة ، كسيحاً بعد إصابته على أثر شربه بضع كؤوس من الكحول قدّمها له خبّاز القرية الذي كان يروم التسلية . وقد عاش ذلك اللّقيط متشرّداً لا يجيد في الحياة عملاً غير الاستعطاء .

في الماضي كانت بارونة « أفاري » قد أنعمت عليه بماوى هو عبارة عن جحر ضيق فرش بالقش ، إلى جانب قنّ الدجاج ، في المزرعة المتاخمة للقصر ؛ فكان ، عندما يُنشَب فيه الجوع أظفاره ، يدقّ باب المطبخ فيجد فيه مَنْ يقدّم له كِسرة خبز أو كأس نبيذ يشفي بها غليله . بيدَ أنّ السيّدة العجوز ، التي كانت تخصّه ببعض عنايتها ، قد فارقت الحياة ، فاهمل مَنْ في القصر أمره .

في القرى لم يبقَ أحد يحسن إليه ؛ فقد أصبح وجوده بين الأهلين أمراً مالوفاً ، حتى إنهم ملّوا رؤيته وهو يدور ، لأربعين سنة خلت من كوخ إلى

كوخ ، بجسده المشوّه وساقيه الخشبيّتين . ولكنه لم يكن يشاء النزوح ، فهو لا يعرف في الدنيا غير تلك البقعة من الأرض ، بقراها الثلاث أو الأربع ، التي عاش فيها بؤسه منذ فجر حياته . لقد رسم لنطاق تسوّله حدوداً معيّنة ، وهو لم يفكّر البتّة في تجاوزة تلك الحدود .

لم يكن يعلم ما إذا كان العالم يمتدّ إلى ما وراء الأشجار التي تحدّ بصره ؛ ولم يكن ليَشغَل فكره بالتساؤل عن ذلك الأمر . كان الفلّاحون ، الذين عافوا وجوده في حقولهم ، يصيحون في وجهه :

– لماذا لا تذهب إلى القرى الأخرى بدلاً من أن تجرّ خطاك على الدوام في هذه الأنحاء ؟

لم يكن يأتي جواباً ، بل كان يبتعد وقد تملّكه خوف من المجهول ، خوف من الوجوه الجديدة التي سيلتقيها إن هو انصرف إلى مكان آخر ، خوف من الشتائم ، ومن الارتياب الذي يلوح في نظر الناس



الذين لا يعرفونه ، ومن رجال الدرك الذين يسرون
في الطرق بين القرية والأخرى أزواجاً أزواجاً ، فيغوص
عند مقدّمهم بين الأعشاب أو وراء أكوام الحصى ،
يتوجّس منهم شرّاً من غير سبب .

كان إذا ما شاهدهم قادمين من بعيد يحسّ بخفّة
غريبة ، خفّة وحش ثقيل يسعى إلى مخبأ يلوذ به ؛
فكان يطرح بعكّازيه أرضاً ويهوي فوق التراب
كالخرقة المهلهلة ، ويتجمّع بعد ذلك ويتدحرج
كالكرة ، ضئيلاً يكاد يمتزج بالتربة التي يتمرّغ فيها
باسماله السمراء بلون الأرض .

لم يكن قد اصطدم بأولئك الدركيين ولا مرّة
واحدة ، إلاّ أن خوفه منهم كان متشبّثاً به ، ينساب
في عروقه وكأنه قد ورثه عن أبويه اللذين لم
يعرفهما قط .

لم يكن له ملجأ ولا سقف ولا كوخ ولا ماوى .
فهو ينام صيفاً في أيّ مكان يعرض له ، وفي الشتاء

يتسلل إلى العنابر أو إلى الإسطبلات بخفة ومهارة ،
ثم يعود إلى الانصراف من غير أن يشعر أحد
بوجوده . كان يعرف مكان كل ثغرة وكل منفذ
يقود إلى داخل الأبنية . وإذا كان العكازات قد
أكسبا يديه عضلات فولاذية ، فقد كان يتسلق إلى
أنبار العلف بقوة زنديه ، فيبقى فيها أربعة أيام أو
خمساً من غير حراك ، وذلك حين يكون قد جمع
من المؤن والزاد ما فيه كفافه .

كان يعيش بين الناس كالبهائم في الغابات ، لا
يعرف أحداً ، ولا يجب أحداً ، يزدرية الفلاحون
جميعاً ولا يُكَنُّون له غير العداوة والاحتقار . وقد
أطلقوا عليه اسم « الجرس » لأنه ، في ترجُّحه بين
عكازيه الخشبيين ، كان يبدو كالجرس بين دفتي
قبته .

لم يذق الطعام منذ يومين . لم يبقَ أحد يعطيه
شيئاً . لقد أصرَّ الجميع على التنكُّر له بصورة قاطعة .

فالنساء يصحن به من بعيد وهنَّ يرينه مُقبلاً نحو
بيوتهنَّ :

- لا تقترب أكثر من ذلك ! ألم أعطيك كسرة
منذ ثلاثة أيام !؟

فكان يستدير على نفسه فيوَّلي شطر المنازل
الأخرى ، فيطرده أصحابها بلا شفقة ولا رحمة .

وكانت النساء يتخاطبن من على عتبات منازلهنَّ ،
فتقول الواحدة منهن للآخرى :

- أياظنَّ هذا الكسول أن باستطاعتنا إطعامه
طوال السنة ؟

إلا أن الكسول هذا بحاجة إلى أن يأكل كلَّ يوم
كما يأكل غيره من الناس .

في ذلك النهار طاف بالقرى فلم يحصل على قرش
واحد ولا على كسرة خبز ولو صغيرة . وكانت قرية
« تورنيل » هي خاتمة المطاف ، وهو لما يبلغها بعد .
ولكن « تورنيل » كانت على بعد ثمانية كيلو مترات ،

وكان يشعر بأنه لن يقوى على الزحف للوصول إليها ،
لأنّ الجوع قد نال منه وأوهن جسده . ومع ذلك انطلق
نحو وجهته وقلبه مفعم بالأمل .

كان ذلك اليوم يوماً من شهر كانون الأوّل ، والرياح
الباردة تجتاح الحقول وتصفير في الأغصان العارية ،
والغيوم تعبر السماء القاتمة سريعة ، تسعى في سباقها
الهائم إلى الجهول . وراح الكسيح يتنقل بتأنٍ ،
يحرّك عكازيه الواحد بعد الآخر وهو مثقل الخطى ،
ويبذل جهوداً جبّارة فيكاد يسقط من الإعياء . ومن
حين إلى حين كان ينحرف إلى جانب الطريق فيستريح
دقائق قليلة .

لقد بدأ الجوع ينهش نفسه الكئيبة اليائسة . كان
الطعام شغله الشاغل ، إلاّ أنّه لم يكن يعرف سبيلاً إلى
ذلك الهدف الذي تسلّط على عقله .

ظلّ يزحف على الطريق المرهق ثلاث ساعات .
وأبصر من بعيد طيف الأشجار الباسقة عند مدخل

القرية ، فحث إليها الخطى وقد دب في أوصاله
نشاط جديد .

ومدّ يده بلهفة لأوّل قروي صادفه ، فبادره
هذا بقوله :

- ها أنت تعود إلينا ثانية ! ألن نتخلّص منك
أبداً ! ؟

وابتعد « الجرس » مطاطىء الرأس ، وراح الناس
يعتفونه ويتردونه من كلّ منزل يدقّ بابه . ولكنّه
استمرّ في محاولته بعناد وثبات ، فلم يُجده سعيه
فتينلاً .

وسار بعد ذلك شطر المزارع وهو يغور في
التراب الذي بلّله المطر ، غير قادر على تحريك
عكازيه ، وقد بلغ منه الخوّار مُنتهاه ، فلقي فيها
من الإهانة والشتائم ما لقيه في جولاته السابقة . كان
ذلك النهار بارداً كئيباً ، والقلوب فيه متحجّرة
يحيّم فوقها ثِقَلٌ قاسٍ قساوة الطقس عينه ، والعقول

فيه مضطربة كأنّ تيار التشويش في الفضاء العابس
قد تسرّب إلى أعماقها ، والنفوس فيه مُدلهِمّة من
وحي السماء الغاضبة . فأنّى للأيدي أن تحسن ،
وللبِرّ أن يفيق من غفوته ، والناس هكذا في حالة
نفسية رهيبة ؟

بعدها انتهى من زيارة البيوت كلّها ، ألقى
بنفسه في حفرة بجوار منزل المعلم « شيكي » . وبقي
هناك جامداً يتضور جوعاً ، وقد غدا خبيلاً لا
يجد حيلة لدرء شقائه وبؤسه .

ماذا كان يتوقّع يا ترى من جرّاء هذا الانتظار
اليأس ؟ ففي زاويته تلك التي لجأ إليها ، وفي غمرة
الريح الجليدية العاتية ، كان ينتظر ذلك العون المُبهم
الذي يأمل كل منّا هبوطه من السماء أو صدوره عن
الناس ، من غير أن نتساءل من أين قد يأتي أو كيف .
ومرّت من أمامه بضع دجاجات تبحث عن قوتها في
الأرض التي تغذي المخلوقات ، فكانت تنقُد حبة من

هنا أو حشرة من هناك ، ثمّ تواصل سعيها وراء
المزيد من القوت بعزم وأناة . وكان « الجرس »
ينظر إليها وهو ساهٍ ، إلى أن خطرت بباله ، أو
بالأحرى خطرت ببطنه المعذب ، فكرة طريفة :
فدجاجة من هذه الدجاجات ستكون ، ولا ريب ،
لذيذة إذا سُويت على نار خفيفة من الحطب اليابس !

ولكنّه لم يفكّر البتّة بأنّه كان مُقبلاً على
ارتكاب سرقة ، فالتقط حجراً ورمى به أقرب
دجاجة إليه ، فأرداها للحال ، فسقطت على جنبها
وجناحاها ينتفضان . وفرّت الدجاجات الأخرى وهي
تتبخر فوق قوائمها الدقيقة ، واعتلى « الجرس » عكازيه
من جديد ، وتحرك نحو طريدته يهيم بالتقاطها ، وهو
يتبخر كالدجاجات في مشيته .

وما إن بلغ الجثة الصغيرة التي لطّخ الدم
رأسها حتى تلقى صدمة عنيفة في ظهره ألقت به
أرضاً وجعلته يتدحرج حتى استقرّ على بعد عشر
خطوات ؛ وإذا بالمعلم « شيكي » ينقضّ على السارق

كالمجنون ، فيشبعه ركلاً وضرباً بقبضتيه ورجليه .
إنهالت الضربات على كل عضو من أعضاء الكسيح وهو
لا حول له للدفاع عن نفسه ولا قوة .

وأقبل كل من في المزرعة يسهم مع السيد في
ضرب الشحاذ . وبعد ما شفى الجميع غليلهم ، وكلت
من الضرب أيديهم ، حملوه إلى مخزن الحطب وأغلقوا
عليه الباب ريثما يذهب أحدهم لاستدعاء الدركيين .

وأما « الجرس » ، الذي كان ينزف دماً من
جروح عديدة في جسده ، والذي كاد يموت من الألم
والجوع ، فقد بقي مستلقياً على الحضيض لا يحرك
ساكناً . وأقبل الليل ، وطلع بعده فجر اليوم التالي ،
وهو لما يعرف للطعام مذاقاً .

وعند الظهر أقبل دركيان إلى المزرعة ، فجاءا
زنزانة الكسيح وفتحا بابها بحدّر لكون المعلم « شيكي »
قد ادعى أن السارق قد هاجمه ، وأنه وجد في الدفاع عن
نفسه صعوبة جمّة !

وصاح الجاويش بـ « الجرس » :

- هيا نهض !

ولكن العزم كان قد فارق جسد المسكين من غير
رجعة ؛ وحاول أن يتسلق عكازيه فلم يفلح ؛
وظنّ الجنديان أنه كن يراوغهما ، وأن حيلة كانت
تختم في مخيلته ، فاقتربا منه وضرباه ، ثم التقطاه
بخشونة ووضعاه قسراً على عكازيه .

كان الخوف قد بدأ يتغلغل في قلبه كما في كل
مرّة يرى فيها الدركيين ، ذلك الخوف الذي يعتري
الطريدة وهي في وجه الصياد ، والذي يستفيق في
صدر الفأرة وهي تفرّ هليعةً من وجه الهرّ . ولكنه
استطاع أن يبقى واقفاً بفضل مجهود فائق .

صاح به الجاويش :

- تقدّم !

وتقدّم الكسيح ، وعمّال المزرعة ينظرون إليه .
لقد ألقى القبض عليه أخيراً ! وها هم قد تخلّصوا

منه بصورة نهائية .

وكان الناس الذين يمُرّون به وهو في طريقه إلى السجن يتوقّفون متهامسين :

- يا للسارق الخبيث !

وفي المساء بلغ الموكب مركز القضاء ، ولم يكن الشحاذ قد وصل إليه في حياته . كان يظنّ نفسه في حلم مزعج ، ولم يكن ليفكّر بما سيحِلُّ به . فتلك البيوت والوجوه الجديدة التي كانت تُحدّق به ، والأحداثُ الرهيبة التي تعاقبت عليه ، قد جعلت الدنيا سوداء في عينيه .

لم يفه بكلمة واحدة لأنّه لم يبقَ يعي شيئاً ممّا يحدث له . وهو ، في أيّ حال ، قد بدأ يفقد النطق لأنّه ، عبرَ السنين الطويلة التي مرّت عليه ، لم يكلم أحداً إلا نادراً . وقد ثقل صمته في تلك اللحظة ، فلو أنّه أراد نطقاً لما استطاع ، لأنّ اضطرابه النفسيّ قد ألقى على عقله غشاءً كثيفاً مشوشاً .

طرح « الجرس » في سجن القرية ؛ ولم يفكّر الدركيّان بأنّ السجين قد يكون بحاجة إلى بعض القوت ، فاهملا أمره حتى جاء اليوم التالي .

ولكنّ ، حين أتى الجنود لاستجوابه في الصباح الباكر ، وجدوه مسجّى على الأرض وقد فاضت روحه .

يا لها من مفاجأة !!

الأسئلة

١ - أسرى الغابة

- ما هي الصفات الأساسية التي تحلّت بها « برتين » ؟
- كيف ظهرت لك الروح الوطنية في تصرفات أشخاص القصة ؟ إختبر بعض المواقف التي تظهر فيها هذه الروح النبيلة .

٢ - الحارس

- الصيد رياضة شهيرة يمارسها عدد كبير من الناس . إختبر من القصة مقاطع تظهر لنا اللذة التي يجنيها أصحاب هذه الرياضة .
- قارن بين شخصيّة الأب « كافاليه » وشخصيّة « ماريوس » .
- ما هي الصفات التي تجبّب لك الأوّل وتبغضك بالثاني ؟

٣ - انتقام أمّ

- ما هي الصفات التي دعت الأمّ « سوفاج » الى الانتقام من الجنود البروسيين بعد ان كانت تعاملهم برحمة ؟
- ما هي الوسيلة التي لجأت إليها في الانتقام ؟

٤ - الذئب

- كيف ظهرت شجاعة الشقيقين في القصة ؟
- كيف تمكّن « فرنسوا » من الانتقام لأخيه من الذئب ؟

محتوى الكتاب

الصفحة

٧	١	أسرى الغابة .
٣٧	٢	الحارس .
٥٧	٣	إنتقام أمّ .
٧٥	٤	الدّئب .
٩١	٥	مغامرة « فالتر شنافز » .
١١١	٦	الثّأر .
١٢٥	٧	الصّديقان .
١٤٥	٨	الشّحاذ .
١٦١	٩	الأسئلة

٥ - فالتر شنافز

- ما هي الأسباب التي حملت « فالتر » على الفرار من الخدمة العسكرية ؟
- كيف وقع في الأسر ؟ وما هي العواطف التي انتابته بعد الأسر ؟ هل هي طبيعية بنظرك ؟

٦ - الثّأر

- كيف تظهر قساوة طباع الأرملة في القصة ؟
- أين الوحشية في طريقة انتقامها ؟

٧ - الصديقان

- كيف قاد حبّ صيد الأسماك الصديقين الى الموت ؟
- كيف ظهرت شجاعة الصديقين في مواجهة حتفهما ؟

٨ - الشّحاذ

- ما هي العواطف التي انتابتك بعد قراءة القصة ؟
- كيف تظهر لنا قساوة الإنسان على أخيه الإنسان في موت الشّحاذ ؟

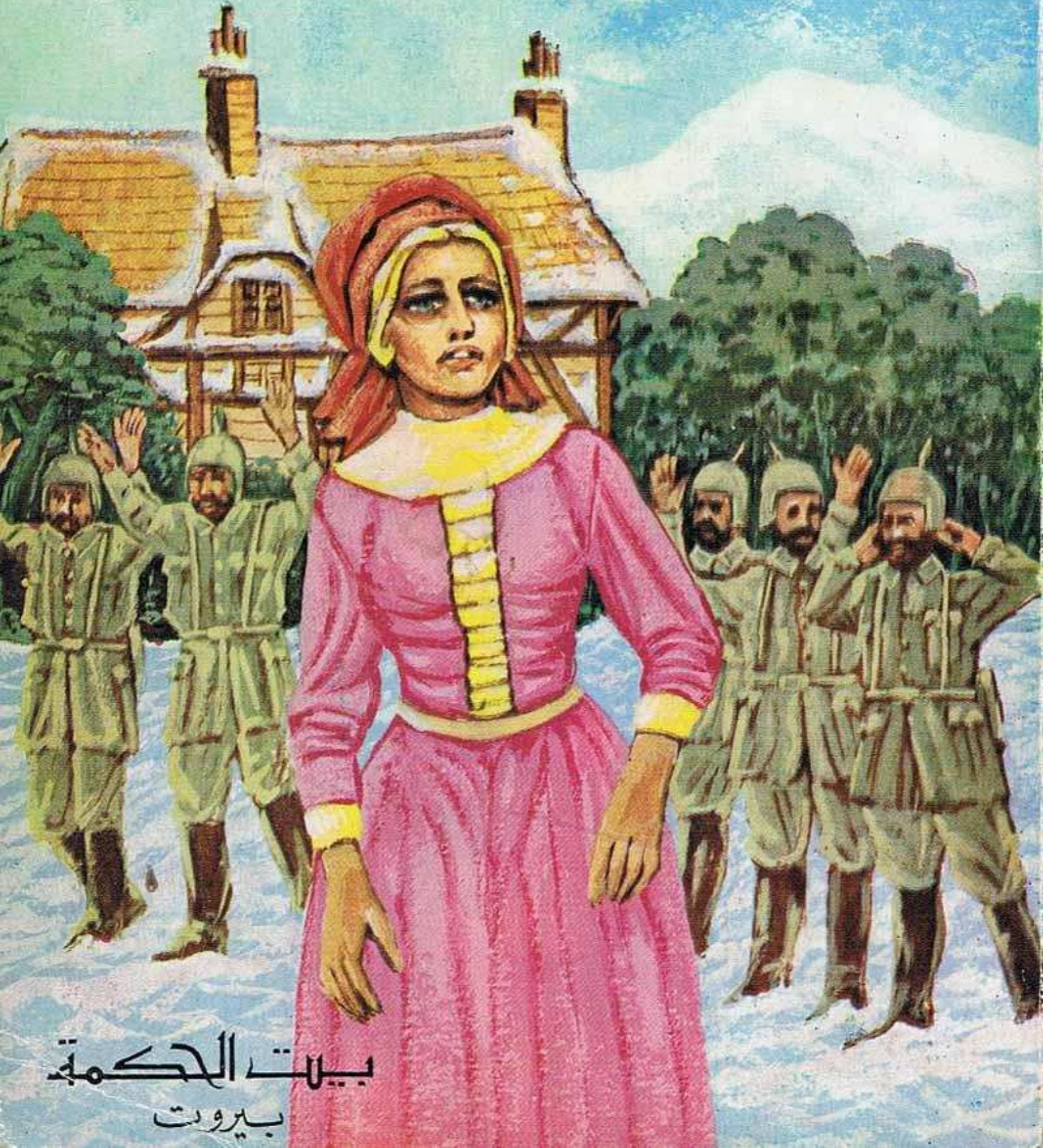
وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٨٤
على مطابع دار غندور ش.م.م.
بيروت

عبدوموایان

الأسرى الغائبين

ترجمتها: أنطوان مسعود

وقصص أخرى



بيات الحكمة

بيروت